التفكيكية مفهومها- أصولها- تطورها- نقدها

د. فهد بن محمد القرشي
الأستاذ المشارك بقسم العقيدة- جامعة أم القرى

ملخص البحث:

تدور فكرة البحث حول الاتجاه التفكيكي من حيث مفهومه وتعريفه ومراحل تطوره ونقده، وأهداف البحث هي:

١. تقريب مفهوم التفكيكية للمثقف العربي غير المتخصص بالعلوم الشرعية، حتى يكون على دراية بهذا المنهج النقدي وكيف يتعاطى معه.

٢. كشف الجوانب المشكلة والمنحرفة في التفكيكة والرد عليها.

٣. بيان خطورة استخدام المنهج التفكيكي للنصوص الأدبية عمومًا والشرعية المقدسة خصوصًا.

وجاء البحث في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، وهي كالتالي:

التمهيد: وفيه أهمية البحث واهدافه ومنهجي فيه.

المبحث الأول: تعريف التكفيكية لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: نشأتها.

المبحث الثالث: أصولها ومراحل تطورها.

المبحث الرابع: النقد.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

وخلص الباحث إلى النتائج الآتية:

١. الغموض الذي يكتنف التفكيكية، مما أدى إلى صعوبة تعريفها تعريفًا جامعًا مانعًا.

٢. أي منهج قبل أن يكون أدوات إجرائية فهو رؤية وتصور عن العالم والوجود والتاريخ والإنسان.

٣. التفكيك أحد الاتجاهات الفكرية لما بعد البنيوية.

٤. التفكيك يقوم على أساس الهدم والتقويض.

٥. التفكيك قام على رفض الميتافيزيقيا الغربية.

٦. خطورة استخدام المنهج التفكيكي على النصوص الأدبية أو الفلسفية بله على النصوص الشرعية.

Abstract:

The idea of research revolves around the deconstructive trend in terms of its concept, definition, stages of development and criticism, and the objectives of the research are:

1 .Bringing the concept of deconstruction closer to the Arab intellectual who is not specialized in legal sciences, so that he is familiar with this critical approach and how to deal with it.

2 .Detect and respond to the problematic and deviant aspects of disassociation.

3 .Explain the seriousness of using the deconstructive approach to literary texts in general and sacred legitimacy in particular.

The research came in a preliminary and four sections and a conclusion, as follows:

Introduction: It includes the importance of research, its objectives, and my methodology in it.

The first topic: Definition of the word "word."

The second topic: its origins.

The third topic: its origins and stages of development.

The fourth topic: criticism.

Conclusion: It contains the most important search results.

The researcher concluded the following results:

1 .The mystery of deconstruction, which made it difficult to define it holistically.

2 .Any method before it is procedural tools is a vision and a vision of the world, existence, history and man.

3 .Dismantling is one of post-structural thinking.

4 .Dismantling is based on demolition and undercutting.

5 .The deconstruction was based on the rejection of Western metaphysics.

6 .The danger of using the deconstructive approach to literary or philosophical texts, and even to legal texts.

التمهيد:

شهدت الساحة النقدية مجموعة من الاتجاهات والمناهج التي تسعى لدراسة النصوص الأدبية، فتعددت هذه المناهج النقدية لتعدد السياقات كالمنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي، والمناهج النصية التي اهتمت بالبحث داخل النص دون سياقاته الخارجية، ونهضت على الجهود اللغوية الحديثة، ومن بين تلك المناهج التفكيكية، وهي ثمرة ثقافة غربية محضة، وإفراز من إفرازاته المادية الصرفة، تعمل على تخريب كل شيء، والتشكيك في كل ثابت، وهدم الأفكار القديمة وكشف معاني النصوص الأدبية.

وهذا يعني أن أي منهج نقدي، قبل أن يكون أدوات إجرائية، هو رؤية وتصور عن العالم والوجود والتاريخ والإنسان.

فالمنهج ينطوي على جانبين متناسقين، متلازمين، بفضلهما تتحد معالمه وتتضح اتجاهاته وأبعاده ومراميه، أولهما: ظاهر مرئي؛ يتمثل في أنه أداة أو وسيلة إجرائية يستعين بها الناقد على تأدية أغراضه. وثانيهما: لا مرئي؛ يتمثل في كونه وجهة نظر، وخلفية معرفية[١].

فهذا يحتم على أي مفكر أن يتعامل مع هذه المناهج بحذر شديد، وعدم اعتبار أي منهج مجرد أدوات إجرائية تساعده على ضبط خطواته في التعامل مع القضايا التي يدرسوها، سواء أكانت نصوصًا أو موضوعات، وتبقى الخلفية الإبستيمولوجية المؤطرة لكل منهج، خارج إطار تصوره الضيق لحجم المشكل وتشعباته ولا تؤخذ بعين الاعتبار في أي تعامل عملي ملموس، وكأن مسألة اختيار منهج من المناهج، مسألة في غاية البساطة، لا تتعدى إطار تفضيل خطوات إجرائية على أخرى ليس غير، وبذلك تستوي البنيوية التكوينية بالشكلية والتحليل النفسي بالاجتماعي متناسيًا هذا المفكر أو ذاك أن كل مصطلح أو منهج يحمل في أحشائه حتمًا خلفية فكرية، تختصر نفسها ورؤيتها وتحليلها، من خلال المصطلح النقدي، والمنهج الذي يلائمه ويستعمل في إطاره، ويتبادل الخدمة معه[٢].

فالتفكيك أحد الاتجاهات الفكرية لما بعد البنيوية يقوم على أساس الهدم والبناء من خلال إعادة القراءة والنظر في الأسس المعرفية الموروثة حيث يستخدم التفكيك للدلالة على نسقٍ ما في قراءة النصوص تهدم ما احتوت عليه من أساسيات معرفية كافية مثلت في وقتٍ ما مواضع تمركز لها[٣].

لذا كان لزامًا الوقوف على نشأة هذا المذهب، ومفهومه ومراحل تطوره، ونقده، لاسيما مع ما شهده الفكر الإنساني من تحولات فكرية وعلمية، أنتجت هذا المنهج النقدي وغيره من المناهج، المعبِّرة عن تلك التحولات التي لاقت اهتمامًا بالغًا من طرف المشتغلين بالمجال الفكري والعلمي.

فالإنسان باعتباره كائنًا عاقلًا تفرض عليه طبيعته العاقلة تعقل الأشياء والموجودات والبحث في ماهيتها، وكذا أسباب حدوثها ونتائجها ومحاولة اكتشاف الرابط الذي يشملها وسبل تطويرها باعتبار أن المعرفة مفهوم شامل مختلف الميادين

(١) انظر: الجذور المعرفية والفلسفية للمناهج النقدية المعاصرة: المنهج التفكيكي نموذجًا (ص ١١٥).
(٢) انظر: وضعنا النقدي.. وضعنا الثقافي (ص٦٢).
(٣) انظر: التفكيكية في الفكر العربي المعاصر(علي حرب أنموذجًا)(ص أ).

الإنسانية.

فالمعرفة ممكنة وليست مستحيلة، وهذا كله متوقفٌ على قدرات الإنسان على الكشف والنقد والربط وغيرها من الفعاليات الفكرية التي يوظفها بحثًا عن الحقيقة والمعرفة الصحيحة في ظل اعتماد طريقة أو أسلوب أو منهج معين، ويمثل التفكيك نظرية نقدية تريد إعادة قراءة النصوص بشقيها الفلسفي والمعرفي، ويرى أن تلك النصوص تخضع لعملياتٍ معقدة ناتجة عن علاقات النصوص ببعضها البعض، ويعد تراجع البنيوية ناتجًا عن فشلها في تحديد السمات الكلية لحركة الدوال ومراهنتها على تموضع البنى في أنساق تحيل إلى مدلولات متعددة، وتوصف بـ(اللامحددة) فضلًا عن عدم إعطائها منزلة فاعلة للمتلقي؛ لأن النص عندها هو من يقدِّم دور الفاعل والمفعول في الوقت نفسه، فكسب المعنى من جانب المتلقي مرهون بما يتيحه النص ببنائه وتعدد أنساقه وحركة بنياته.

فالحديث عن التفكيكية وغيرها من النظريات النقدية الناشئة في مرحلة ما بعد الحداثة وتقريبها للمثقفين حتى يقفوا على عوارها أمر مهم، لاسيما وأن هناك اتجاهات في العالم العربي تبنت مثل هذه الأفكار غربية المنشأ، وأصبحت تشكل منهجًا نقديًا للنصوص الشرعية، فكان لزامًا علينا أن نفككها ونبسط هذه النظريات ليقف القارئ الكريم على تاريخها وظروف نشأتها، ثم نأتي بعد ذلك على صلاحيتها من عدمه للتطبيق في عالمنا العربي والإسلامي وعلى تراثنا الأدبي، فضلًا عن أن تكون منهجًا لتفسير النصوص الشرعية المعصومة.

أهداف البحث:

١. تقريب مفهوم التفكيكية للمثقف العربي غير المتخصص بالعلوم الشرعية، حتى يكون على دراية بهذا المنهج النقدي وكيف يتعاطى معه.

٢. كشف الجوانب المشكلة والمنحرفة في التفكيكة والرد عليها.

٣. بيان خطورة استخدام المنهج التفكيكي للنصوص الأدبية عمومًا والشرعية المقدسة خصوصًا.

منهجي في البحث:

سأسلك في هذا البحث المنهج التحليلي فيما يتعلق بالتفكيكية وما وقفت عليه مما كتب عنها.

إجراءات البحث:

.١ توثيق المعلومات من مصادرها الأصلية متى تيسر ذلك، وإلا فالمراجع الثانوية.

٢. ذكر اسم المصدر أو المرجع أثناء البحث، ثم أستوفي معلومته كاملة في فهرس المراجع.

٣. ذيلت البحث بفهرس الموضوعات.

جاء هذا البحث في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، وهي كالتالي:

التمهيد: وفيه أهمية البحث واهدافه ومنهجي فيه.

المبحث الأول: تعريف التكفيكية لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: نشأتها.

المبحث الثالث: أصولها ومراحل تطورها.

المبحث الرابع: النقد.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

المبحث الأول: تعريف التفكيكية لغة واصطلاحًا

التعريف اللغوي:

جاء في لسان العرب: يقال: فككت الشيء فانفك بمنزلة الكتاب المختوم تفك خاتمه كما تفك الحنكين تفصل بينهما.

وفككت الشيء: خلصته، وكل مشتبكين فصلتهما فقد فككتهما، وكذلك التفكيك.

ابن سيده: فك الشيء يفكه فكًا فانفك فصله. وفك الرهن يفكه فكًا وافتكه: بمعنى خلصه. وفكاك الرهن وفكاكه، بالكسر: ما فك به.

الأصمعي: الفك أن تفك الخلخال والرقبة. وفك يده فكًا إذا أزال المفصل، يقال: أصابه فكك؛ قال رؤبة: هاجك من أروى كمنهاض الفكك ***

وفك الرقبة: تخليصها من إسار الرق. وفك الرهن وفكاكه فكاكه: تخليصه من غلق الرهن.

ويقال: هلم فكاك وفكاك رهنك. وكل شيء أطلقته فقد فككته. وفلان يسعى في فكاك رقبته، وانفكت رقبته من الرق، وفك الرقبة يفكها فكًا: أعتقها، وهو من ذلك؛ لأنها فصلت من الرق(٤).

يتبين من خلال التعريف اللغوي لكلمة التفكيك أنها تعني الفصل بين الأشياء.

(٤) انظر: لسان العرب (١٠/٤٧٥-٤٧٧).

التعريف الاصطلاحي:

يعود مصطلح التفكيك للفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا"(ت ٢٠٠٤م= ١٤٢٥ه)" حيث طرح هذا المصطلح عام ١٩٦٦م، فكان هذا التاريخ أوّل إعلان لميلاد هذا المصطلح، وشارك "جاك دريدا" بورقة بحثية بعنوان"البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية"، أو"اللغات النقدية وعلوم الإنسان"، بالندوة التي نظمتها جامعة "هوبكنز" بالولايات المتحدة بعنوان "انقاذ اللغات واللسانيات". وكانت له مداخلة أرسى فيها أسس التفكيكية، وبدأ هذا المصطلح يفرض نفسه. وتميزت هذه الورقة البحثية بقطيعة معرفية واضحة مع الافتراضات النظرية التي تنطوي عليها النزعة البنيوية، فذاعت على الفور بوصفها إيذانًا بظهور حقبة ما بعد البنيوية، وشاركه في الندوة مجموعة من النقاد والباحثين من مثل:"رولان بارت" و"تودوروف" و"لوسيان جولدمان" و"ج. لاكان". فنشأ التفكيك أولًا في فرنسا ثم انتقل إلى أمريكا في سبعينيات القرن العشرين (٥).

ظهرت التفكيكية كمشروع لقراءة النص الأدبي، ثم توسعت حتى شملت النصوص التي غلب عليها صفة القداسة، ونقض الأسس التي ارتكز عليها النص في بنيته وزعزعتها، وإعادة بنائها، للكشف عن وجوه للدلالة لم تكن في حسبان كاتب النص، وذلك باستحضار الدلالة الغائبة للدوال اللغوية، وقلب مركزية النص دون أن تحسم دلالته النهائية في بعد واحد، وقد شبهها بعض المفكرين الغربيين بـ" الكرنفال"، حيث إنه " في أثناء الكرنفال تخضع الحياة لقوانينها فقط، فلا توجد حياة خارج الكرنفال"(٦) وهو تمثيل يصدق على هذا النقد التفكيكي غير المسبوق من الفوضى.

فهي حركة ما بعد حداثية تحاول أن تهز الأساسات الميتافيزيقية للحضارة والفلسفة الإنسانية، وذلك بكشف مقدار اللايقين الاختياري في مفاهيمها الثنائية(٧).

وقد أشار إلى هذا المعنى المفكر "عبدالعزيز حمودة" عندما قال:" لا نكون مبالغين إذا قلنا إن أهم الأدوار في استراتيجية التفكيك هو دور القارئ وليس المؤلف أو العلامة أو النسق أو اللغة. القارئ فقط هو الذي يحدث عنده المعنى ويحدثه"(٨).

(٥) انظر: مداخل إلى التفكيك (ص٢٣١)، واستراتيجيات القراءة التأصيل والاجراء النقدي (ص١٩)، والكتابة في النقد التفكيكي عند جاك دريدا من خلال مؤلفه "الكتابة والاختلاف"(ص٤٥)، وموسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية (ص١٩٦).

(٦) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك (ص٢٥٤). وانظر: التفكيكية وقراءة الأدب العربي القديم (ص١٠٧٥).

(٧) انظر: التفكيكية عند جاك دريدا (ص٤٦١).

(٨) المرايا المحدبة (ص٢٨٠).

و"علي حرب" عندما قارن بين التأويل والتفكيك، قال:" لا شك أن هناك علاقة بين التأويل والتفكيك... ولعل التأويل هو أصل للتفكيك وجذر، إذ كلاهما يتجاوز المنطوق الظاهر للنص إلى منطقة الخفي. غير أن التأويل هو سعي للوقوف على مقاصد المؤلف، في حين أن التفكيك لا يتعامل إلّا مع ما هو بالمتناول، أي يعالج النص ويسعى إلى استكشاف إمكاناته. التأويل هو التفات إلى كثافة المعنى ومفاضلة بين وجوه الدلالة، في حين أن التفكيك يهتم بفراغات النص وثقوبه. التأويل هو التقاط معنى أو استقصاء مفهوم، بينما التفكيك خلخلة لبنية النص وحفر في طبقات الخطاب... والتفكيك يقطع الصلة بالمؤلف ومراده، ويتعدّى المعنى واحتمالاته. إنه لا يهتم بالمعنى بقدر ما هو سعي للتحرر من إمبرياليته. ولا يُعنى بما يطرحه القول بقدر ما يُعنى بما يستبعده أو يتناساه. ولا يبحث عن الدلالة الحقيقية للنص، بل يتعامل مع النص نفسه بوصفه واقعة مستقلة تملك حقيقتها وتفرض نفسها... باختصار: التفكيك يتعامل مع النص بوصفه استراتيجية للحجب والخداع والنسخ والتحويل أو التحريف... والنص يحجب في النهاية ذاته وسلطته أو موضوعه وشروط إمكانه. وهذه مفاهيم محورية في استراتيجية التفكيك"(٩).

استمد"جاك دريدا" فلسفته التفكيكية مِنْ الهاءات الثلاثة "هوسرل" و"هيدغر" و"هيغل"، وأكثرهم تأثيرًا عليه "هوسرل"، فقد تعلم منه المنهجية وتشكيل الأسئلة(١٠).

فـ"جاك دريدا" نفسه قد عمل على تقويض المنطق، مستبدلًا إياه بالاختلاف والتقويض واللاعقل(١١).

اختلف في ترجمة مصطلح "ديكونستركشن"(déconstruction) إلى العربية فترجم بـ:"التكفيكية" و"التقويض"(١٢)، وترجمها "المسيري" بالانزلاقية(١٣)، وبعضهم بـ"التشريحية"(١٤)، والأول أكثر تداولًا، والأخير أبعدها عن الدقة، ولعل

---

(٩) الممنوع والممتنع نقدُ الذات المفَكِّرة (ص٥٣،٥٤).

(١٠) انظر: معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديث (ص٣٤).

(١١) انظر: التفكيكية في الفكر العربي القديم جهود عبدالقاهر الجرجاني أنموذجًا (ص٥٨)، والحداثة وما بعد الحداثة (ص١١١).

(١٢) انظر: دليل الناقد الأدبي (ص١٠٧).

(١٣) انظر: الحداثة وما بعد الحداثة (ص١١١).

(١٤) مِنْ مَنْ عرّفها بالتشريحية أو تشريح النص د. عبدالله الغذامي، حيث يقول:" احترت في تعريب هذا المصطلح- (Deconstructiv Criticism)- ولم أر أحدًا من العرب تعرض له من قبل (على حد اطلاعي) وفكر بكلمات مثل (النقض/والفك) ولكن وجدتهما يحملان دلالات سلبية تسيء إلى الفكرة. ثم فكرت باستخدام كلمة (التحليلة) من مصدر (حلّ) أي نقض ولكنني خشيت أن تلتبس مع (حلل) ي درس بتفصيل، واستقر رأيي أخيرا على كلمة (التشريحية أو تشريحية النص). والمقصود بهذا الاتجاه هو تفكيك النص من أجل إعادة بنائه وهذه وسيلة تفتح المجال للإبداع القرائي كي يتفاعل مع النص". انظر: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريح قراءة نقدية لنموذج معاصر (ص٥٢).

التعريف الأول أدق في المقصود من المصطلح[١٥].

وعندما نأتي لتعريف التفكيكية اصطلاحًا، فإننا نجد صعوبة في وضع تعريف محدد لها، حيث يصعب على الباحث تحديد مفهوم دقيق للتفكيك، أو تحديد دلالة ثابتة له، والسبب أنه يشير إلى تيار فلسفي ونقدي يرفض التعريف والتحديد، كما أنه لا يتصف بصفة واضحة، فالتفكيك يتخذ" مظاهر عديدة، مرة يبدو موقفًا فلسفيًا، وثانية يكون استراتيجية سياسية أو فكرية، ومرة ثالثة يبدو طريقة في القراءة"[١٦].

وقد أشار "جاك دريدا" إلى هذه الصعوبة، حيث قال:" إن صعوبة تحديد مفردة التفكيك، وبالتالي ترجمتها، إنما تنبع من كون جميع المحمولات وجميع المفهومات التحديدية وجميع الدّلالات المعجميّة، وحتى التمفصلات النّحوية التي تبدو في لحظة معيّنة وهي تمنح نفسها لهذا التحديد وهذه الترجمة، خاضعة هي الأخرى للتفكيك وقابلة له، مباشرة أو مداورة، إلخ... وهذا يصح على كلمة "التفكيك" وعلى وحدتها، مثلما على كل كلمة"[١٧].

فـ"جاك دريدا" نفسه يضع عقبات عديدة أمام أية محاولة لتعريف التفكيك الذي جاء به، حيث إنه لا يعتبر التفكيك منهجًا، قال:" ليس التفكيك منهجًا ولا يمكن تحويله إلى منهج". ثم أخذ يتسائل قائلًا:" ... من هنا السجال الذي نشأ وتنامى في بعض الأوساط: أيمكن للتفكيك أن يتحول إلى منهج للقراءة والتأويل؟ أيمكنه أن يسمح باحتوائه على هذا النحو وتدجينه من قبل المؤسسات الأكاديمية؟!"[١٨]. وقد اتفق نقاد التفكيكية بأن التفكيك لا يقدم ولم يقدم نظرية بديلة للمذاهب والنظريات التي يدمرها أو يرفضها[١٩].

فـالفكر التفكيكي يوصف بأنه فكر صعب وقلق، وهذا ما كان يتصف به مؤسس هذا الفكر "جاك دريدا" فهو مفكر عسر وقلق أيضًا، فها هو ذا يقول عن نفسه:" أنا يهودي جزائري، يهودي لا - يهودي بالطبع. ولكن هذا كافي لتفسير العسر الذي أتحسسه داخل الثقافة الفرنسية، لست منسجمًا إذا جاز التعبير، أنا أفريقي شمالي بقدر ما أنا فرنسي..."[٢٠].

---

(١٥) انظر: مناهج النقد الأدبي الحديث- رؤية سلامية (ص١٨٣).
(١٦) جوناثان كلر عن التفكيك ضمن مدخل إلى التفكيك (ص١٠٥). وانظر: تلقي التفكيكية في النقد العربي الحداثي– علي حرب أنموذجًا-(ص١١،١٢).
(١٧) الكتابة والاختلاف (ص٦٢).
(١٨) الكتابة والاختلاف (ص٦١). وانظر: مداخل إلى التفكيك (ص٣٠٣).
(١٩) انظر: المرايا المحدبة (٣٠٩).
(٢٠) الكتابة والاختلاف (ص٥٦).

كان "جاك دريدا" دائم التعريف لهذا المصطلح بالسلب، فهو لا يذكر المقصود من هذا المصطلح الذي أدخله إلى قاموس الدراسات النقدية، وإنما يفسره بما ليس هو، وكأنه لا يستطيع أن يسمى ما لا يمكن تسميته[٢١]، يقول "جاك دريدا":" إن كلمة التفكيك شأن كل كلمة أخرى، لا تستمد قيمتها إلا من اندراجها في سلسلة من البدائل الممكنة فيما يسميه البعض ببالغ الهدوء سياقًا، مثل الكتابة والاختلاف"[٢٢].

إلا أن "دريدا" عرّف التفكيك في حوراه مع "كريستيان ديكان"بأنه:" حركة بنيانية وضد البنيانية في الآن نفسه. فنحن نفكك بناءً أو حادثًا مصطنعًا لنبرز بنياته، أضلاعه، أو هيكله كما قلت، ولكن نفك في آن معًا البنية التي لا تفسر شيئًا، فهي ليست مركزًا، ولا مبدأ قوة، أو مبدأ الأحداث بالمعنى الكامل، فالتفكيك من حيث الماهية، بالقول عنه أنه طريقة "حصر البسيط" أو تحليل، أنه يذهب أبعد من القرار النقدي، من الفكر النقدي"[٢٣].

وعرّفه أيضًا بقوله:" إن تفكيك الفلسفة يعني إذن الاشتغال عبر الجينالوجية[٢٤] التي قد شيَّدت مفاهيم الفلسفة اشتغالًا يُقِيمُ عند هذه المفاهيم إقامة يُداخلها الشك، ويُعَيِّن في الوقت نفسه- من منظور خارجي ليس بالإمكان منحه اسمًا أو وصفًا بعدُ- ما قد حجبه هذا التاريخ أو أبعده؛ ذلك التاريخ الذي أنشأ نفسه من أوله إلى آخره تاريخًا لهذا القمع. وهاهنا يكمن الرهان"[٢٥]. وعرّفه أيضًا بقوله:" إنه أكثر من لغة"[٢٦].

وعرّفه "كريستوفر نوريس" بقوله:" هو تفتيش يقظ عن "السقطات" أو نقاط العمى أو لحظات التناقض الذاتي حيثما يفضح النص لا إراديًا التوتر بين بلاغته ومنطقه، بين ما يَقْصِدُ قوله ظاهريًا وما يُكْرَهُ على أن يعنيه رغمًا عنه"[٢٧].

وعُرِّف في "دليل الناقد العربي"[٢٨] بأنه:" قراءة مزدوجة تسعى إلى دراسة النص (مهما كان) دراسة تقليدية أولًا لإثبات معانيه الصريحة، ثم تسعى إلى تقويض

(٢١) انظر: المرايا المحدبة (ص٣٢٧).
(٢٢) التفكيكية عند جاك دريدا (ص٤٦١).
(٢٣) حوار جاك دريدا، كريستيان ديكان (ص٢٥٤) نقلًا عن معرفة الآخر (ص١١٤).
(٢٤) المقصود بها: البحث في أنساب الأفكار. انظر: الكتابة والاختلاف (٢٤). وهي تعني أيضًا الكشف عن نشأة الأخلاق، وهو مصطلح فلسفي يعنى برصد وتشكل وتكوين أي ظاهرة معرفية من بدايتها وحتى الحاضر. فكتاب "نيتشه" "جينالوجيا الأخلاق" كأنه يقصد الحديث عن أصلها وفصلها. انظر: في جينالوجيا الأخلاق (ص١٨).
(٢٥) جوناثان كلر عن التفكيك ضمن مدخل إلى التفكيك (ص١٠٦). وانظر: المرايا المحدبة لعبدالعزيز حمودة- دراسة في نقد النقد (ص٤٣).
(٢٦) أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي (ص١٤٤).
(٢٧) مداخل إلى التفكيك (٣٠٤،٣٠٥).
(٢٨) (ص١٠٨).

ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان تتناقض مع ما يصرح به. تهدف القراءة التقويضية من هذه القراءة إلى إيجاد شرخ بين ما يصرح به النص وما يخفيه (بين ما يقوله النص صراحة وبين ما يقوله من غير تصريح)".

وعُرّف في "المصطلحات الأدبية الحديثة"(٢٩) **بأنه**: "فك الارتباط، أو حتى تفكيك الارتباطات المفترضة بين اللغة وكل ما يقع خارجها، إي إنكار قدرة اللغة على أن تحيلنا إلى أي شيء أو إلى أي ظاهرة إحالة موثوقًا بها". وهذا يعني عدم وجود معان محددة للكلمات، وأن أقصى ما نستطيع إدراكه هو الاختلاف فيما بينها وإرجاء المعنى إلى أجل غير مسمى.

وعُرّفت بأنها:" تفكيك الخطابات والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها، والاستغراق فيها وصولًا إلى الإلمام بالبؤر الأساسية المطمورة فيها"(٣٠).

ووصف "علي حرب" التفكيك بأنه:" يقطع الصلة مع المؤلف ومراده، ومع المعنى واحتمالاته. به يجري التعامل مع الوقائع الخطابية وحدها، لا بصفتها إشارات تدل أو على علامات تنبئ، بل بوصفها مواد يجري العمل عليها لإنتاج معرفة تتعلق بكيفية إنتاج المعرفة والمعنى. ولهذا فإن التفكيك يتجاوز منطوق الخطاب إلى ما يسكت عنه ولا يقوله، إلى ما يستبعده ويتناساه. إنه نبش للأصول وتعرية للأسس وفضح للبداهات"(٣١).

فمن خلال ما سبق ذكره، يتضح أن التفكيكية نظرية نقدية لنقد النصوص، لكنها جانبت وجه الصواب في كثير من أفكارها، وأنه قد اعتراها الكثير من الغموض والالتباس في أذهان أصحابها، فضلًا عن المقلدين لهم من المفكرين العرب.

المبحث الثاني: نشأة التفكيكية

تأسست استراتيجية التفكيك على رفض الميتافيزيقيا الغربية، التي هي في نظر "جاك دريدا" أيديولوجيا المجموعة العرقية الغربية، قَصدَ تقويض التصور الذهني الذي أرسته الفلسفة الغربية، القائم على تكريس المقابلات الثنائية، مثل:(الكلام/الكتابة، والحضور/ الغياب، والواقع/ الحلم، والخير/ الشر، وغيرها)، ومن ثم الإتيان بمفاهيم ثورية جديدة، مثل:(الاختلاف) Difference، الذي يعني المغايرة والتأجيل، ونقض

(٢٩) المصطلحات الأدبية الحديثة- دراسة ومعجم انجليزي- عربي (ص١٣١).
(٣٠) معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة (ص١١٤)، واستراتيجية القراءة التأصيل والاجراء النقدي (ص٢٢).
(٣١) الممنوع والممتنع نقد الذات المفكِّرة (ص٢٢).

(التمركز حول العقل) Logocentrism .

فتفكيك العقل عند "جاك دريدا" لا يعني (اللاعقل) أو (اللاعقلانية)، وإنما يعني إقامة فكر متطور يقوم على محاولة رفض الميتافيزيقيا الغربية، (ميتافيزيقا) الحضور التي رسمت الفكر الغربي طويلًا، التي يشكل التعبير الأكثر صرامة عنها النظام الفلسفي الهيجلي في ميله إلى منهج الألوية للمضمون المحدد بصورة كلية على أنه مجموع المدلولات، ونظام "دي سوسير" اللغوي القائم على تكريس الثنائيات مثل: الكلام/الكتابة، الحضور/ الغياب، الصوت/ الصمت، الواقع/ الحلم ... إلخ.

فـ"جاك دريدا" يحاول إقامة استراتيجية شاملة للتفكيك، تتفادى الوقوع في فخ المقابلات الثنائية الميتافيزيقية، وأن تعمل داخل هذا الأفق المغلق رجة من داخله، ومن هنا جاء التفكيك منفتحًا على الأسئلة الملقاة على العقل لكشف تناقض الميتافيزيقيا الغربية ونظام "دي سوسير" وهدمهما هدمًا ممنهجًا قصد تفكيك الفكر النقدي للتراث الفلسفي الممأس، ورغبته في طرح سيطرة المفهوم والـمَفْهَمة للنقاش(٣٢).

وذهب بعض الباحثين(٣٣) أن نشأة التفكيكية يرجع لفشل البنيوية في النقد الأدبي، حيث إن "البنيوية" و"السيميائية" و"التفكيك" تعد أهم المنهجيات الأساسية التي نهضت على الجهود اللغوية الحديثة، وهذا يفرض رسم خارطة تلك الجهود، وملاحقة مراحل تطورها وصولًا إلى تجلياتها في المنهج التفكيكي. " وعندما كانت اللغة نظامًا من الإشارات التي تعبر عن الأفكار، قوَّض "فريناد دي سوسير" أصول الدرس التقليدي للغة، الذي كان يرى فيها وسيلة معبرة عن الأشياء، وهذا أضفى على اللغة أهمية لم تكن تتمتع بها من قبل، فقد دخلت من صميم البنية اللاشعورية للإنسان... وبعد وفاة "دي سوسير" كان الشكلانيون الروس يضعون أساسًا لثورة منهجية في درس الأدب واللغة، هادفين إلى خلق علم أدبي مستقل انطلاقًا من الخصائص الجوهرية للمادة الأدبية، ونشأت الشكلانية الروسية من جهود حلقة موسكو اللغوية، وحلقة بطرسبورغ، وتركز اهتمام الشكلانية بدراسة الصفة التي تجعل من الأثر عملًا أدبيًا، فأكدوا أن النص الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله، واستطاعوا أن يخلصوا الدراسات الأدبية من أثقال العلوم الأخرى. وأعقبت جهود "دي سوسير" والشكلانيين ثورة شبه شاملة انتقلت من أوروبا إلى أمريكا، واستأثرت باهتمام كبير في النصف الأول من القرن العشرين، وتمثل هذه الجهود أصولًا لا يمكن تجاهلها للتفكيك. وتمثلت هذه الجهود بحلقة براغ اللغوية، ومن ممثليها "جاكوبسن" و"بنفست" و"مارتنيه"،

---

(٣٢) انظر: التفكيكة دراسة نقدية (ص٩).
(٣٣) مروان أمين في بحثه، الموسوم بـ"التفكيكية عند جاك دريدا".

فتوصلوا إلى وجود نمطين: اللغة القياسية المعيارية واللغة الاستشرافية، إضافة إلى مدرسة كوبنهاجن ومن ممثليها "هلم سيليف". وفي مجال الأدب ظهرت في أمريكا مدرسة النقد الجديد ومن ممثليها "جون كروراسنوم واليوت"، التي دعت إلى ضرورة وجود ناقد معني بموضوع نقده مباشرة دون الاهتمام بمعانيه أو مؤثراته الخارجية، أي عزل النص عما يؤثر فيه. ولقد كان "جاك دريدا" أحد المشككين بإمكانات البنيوية، قائلًا: إن البنيوية تعيش حالة انقسام بين ما تعد به وبين ما أنجزته أو حققته.

من هنا يتجه التفكيك بشكل أساسي إلى نقد الطرح البنيوي، وإنكار ثبات المعنى في منظومة النص، واختزال الفرد المنتج... نتوصل إلى أن التفكيك كان مرحلة من مراحل جدل المنهجيات وصراعها"(٣٤).

فالتفكيكة انبثقت من رحم "البنيوية" نفسها كنقد لها، وانصب على مشكلات المعنى وتناقضاته يزعزع فكر البنية الثابتة، من خلال اصطدام فكر ما بعد البنائية الذات بالنقد الأمريكي الجديد، فقد كان "جاك دريدا" أحد المشككين بإمكانات البنيوية، وطرح رأيه فيها في مرحلة مبكرة، حيث قال:" إن البنيوية تعيش حالة انقسام بين ما تعد به وبين ما أنجزته أو حققته..."(٣٥).

" فالحركة ما بعد البنيوية التي ظهرت في منتصف ستينيات القرن الماضي أي في عز الرواج البنيوي، ليست قطيعة في المسار البنيوي، إنما هي نقطة انعطاف بالمفهوم الرياضي في منحنى الدالة البنيوية، حيث اكتشف ممثلو ما بعد البنيوية والذين هم بنيويون خطأ طرائقهم، وبهذا فما بعد البنيوية تعتبر مراجعة للبنيوية وتأملها في مسار تطورها. فمشروع "دريدا" التفكيكي لم ينشأ من العدم، ولم يكن عبثًا ولا من عفو الخاطر أو تجسيدًا لأفكار خاصة، بل كان فكره وآراؤه نِتاجًا لمناخ فكري وحضاري، فالتفكيك كان نتيجة حتمية للأوضاع التي عاشها الفرد الأوروبي الذي ثار وتمرد على الفكر العقلاني الذي أسره، فكانت ثورته تحقيق الحرية والتخلص من سلطة الكنيسة التي صادرت الفكر والحريات وجعلت الأفراد خاضعين لها. ثم كانت ثورته على العلم التجريبي ومن بعده العقل، الذي كان سببًا في شقاء الإنسان الأوروبي، فشاع الشك وغابت الحقيقة، وفي خضم هذه الفوضى فقدان الثقة يأتي "دريدا" بفكره التفكيكي مستفيدًا من سابقه. حيث ينطلق فيلسوف الاختلاف والغيرية في تأسيس التفكيك من فلسفة "نيتشه" في مواجهته لمفهوم الحقيقة في

---

(٣٤) التفكيكية عند جاك دريدا (ص٤٥٦-٤٥٩).

(٣٥) نقلًا عن: معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة (٢٦). وقد بحثت عن هذا النص في كتاب "الكتابة والاختلاف" لجاك دريدا المترجم المطبوع ولم أقف عليه.

الميتافيزيقا الغربية، ومن دراسات "هيدغر" التي تنزع إلى الشك في كل الخطابات الفلسفية من خلال فلسفته التأويلية التي حاول من خلالها فتح باب تعدد القراءات ولآئية التفسير.

ويرى "نيتشه" أن الخطاب في الآداب القديمة كان خطابًا مصنوعًا لا فطريًا؛ لأنه شفهي بعكس الخطاب المعاصر الذي يتجسد عن طريق الكتابة، ومعنى هذا أن نيتشه يعطي الأهمية للكتابة بعد أن همشها الفكر الميتافيزيقي الغربي، وهذا ما نجده عند جاك دريدا"[٣٦].

فـ" تتحدد رؤية التفكيك لفلسفة الميتافيزيقا الغربية على ألا نظام مركزي من ناحية أنَّ كل وحدة من وحداتها يرجع إلى مركزية "الله" أو "الإنسان" أو "العقل" حيث دخلت هذه المراكز الثلاثة في علاقة جدلية عبر مراحل تطورها إلى أن وصلت إلى التفكيك، ويمكن تحديد مراحل تطور تلك المراكز بأربعة مراحل:

١. مرحلة العصر المسيحي المبكر إلى حد القرن الثامن عشر.
٢. مرحلة القرن الثامن عشر وفلسفة التنوير إلى حد القرن التاسع عشر.
٣. القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين تقريبًا.
٤. المرحلة الأخيرة بدأت عام ١٩٦٦م، فهي تمثل انبثاق معطيات "دريدا"، حيث اتسمت المرحلة الأولى بكون "الإله" هو المركز في كل شيء، وهو الأصل لكل الموجودات والنتاجات العلمية والدينية، وفي المرحلة الثانية تخلخلت مركزية الإله واعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يتربع على عرش هذه المركزية. وفي المرحلة الثالثة طردت العقلانية المركز، وأصبح اللاوعي أو اللاعقلانية هي المركز وأصل الأشياء، ووصلت المرحلة الأخيرة إلى دريدا الذي أعلن بجرأة خلخلة تلك المراكز حيث تركت كل مرحلة من تلك المراحل أثرًا في التحليل التفكيكي عند دريدا"[٣٧].

فنشأة التفكيكية قديمة، لكنها لم تتبلور على هيئتها التي عُرفت بها إلا على يد "جاك دريدا" في عام ١٩٦٦م.

وهناك من الباحثين[٣٨] يرى أن نشأة التفكيكية ترجع إلى تاريخ قديم جدًا، محاولًا إثبات ثمة علاقة بين اليهودية والتفكيكية[٣٩]، وذهب إلى أن تأثير كل من "الغنوصية"

(٣٦) التفكيكية في الفكر العربي المعاصر- علي حرب أنموذجًا (٩-١١).
(٣٧) المرجع نفسه (ص٤).
(٣٨) أحمد العزري في أطروحته للماجستير "تلقي التفكيكية في النقد العربي الحداثي"(٣٢-٣٧).
(٣٩) على غرار ما فعله أحد اساطين الفلسفة الغربية "يورغن هابرماس"، عندما قام ببحث مفصّل عن تأثيرات التصوف اليهودي في الفلسفة الألمانية في كتابه الموسوم بـ"الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي"، حيث قال:" وأننا لا ننوي هنا أن نقدم إثباتًا جديدًا على ما ثَبَتَتْ صحته منذ زمن بعيد. بل إن ما نريد إيضاحه هو أمر مختلف تمامًا، وبالفعل فإننا ما نزال نفاجأ دومًا من مدى فاعلية الانطلاق من تجربة التراث اليهودي لإضاءة بعض الموضوعات الخاصة بالفلسفة الألمانية، المصبوغة بشكل أساسي بالبروتستانية". الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي (ص٥٠).

و"العرفانية" كان كبيرًا في التيارات الفكرية والفلسفية، ولا أدل على ذلك من دراسة "امبرتو ايكو" في ما يسمية "الهرمسية" أو "العرفانية" ومتاهات التأويل، إذ إن كثيرًا من الفلاسفة المعاصرين الذين كان لهم بالغ الأثر في الفكر الغربي من فلسفة وتاريخ ونقد وسياسة، كانوا من أعضاء الجماعات اليهودية الغربية أو متأثرين بشكل أو بآخر بالتراث القبلاني، ومنهم "نيتشه" و"فرويد" و"هيدغر" و"جاك دريدا" و"آدورنو" و"ليفيناس" و"هوركهايمر" و"سارتر" و"هارتمان" و"بول دي مان". بالإضافة إلى أن "جاك دريدا" ذو أصول يهودية، علاوة على أن مفاهيمه عن الاختلاف والإرجاء والكتابة تقترب من المفاهيم المبثوثة في التراث القبلاني والنصوص الدينية اليهودية، وهي تظهر في أسلوبيته بتوظيفه لمفاهيم مطمورة في الوجدان اليهودي، فاليوناني هو اليهودي في الكلمة، واليهودي هو اليوناني في الكتابة، كما يزعم "جاك دريدا"، فاليهودية تطرح بديلًا لميتافيزيقيا الحضور اليونانية، فنموذج اليهودي عنده كان نموذجًا لتفكيك الفكر، لذا كانت أبعاد يهودية في مشروعه.

ومما استدل به على ذلك مدى الشبه بين المقولات التفكيكية من غياب المرجعية والمدلولات النهائية، ووضعية الكيان اليهودي المشتت، أما الشبه الذي يربطهما بمناهج التأويل، فالقراءة التفكيكية في جوهرها ثورة على ميتافيزيقيا الحضور الغربية ذات الأصول الكنسية التي تنفي الآخر (اليهودي المنبوذ)، وعلى هذا قامت قراءة "سوزان هاندلمان" التي طورت من خلالها مصطلح "الهيرمينوطيقا المهرطقة" وهو مصطلح مكون من كلمتين الأولى: الهيرمينوطيقا؛ التي تعني فن نفسير الكتاب المقدس، والهرطقة التي تعني التأويل الخاطئ للدين.

بالإضافة إلى علاقة المثقفين اليهود بالحضارة الغربية، ومحاولتهم الدائمة تحطيم النصوص وتقويضها لا تفسيرها، وكأن هذا المصطلح يعني أن التفكيكية في جوهرها إساءة تفسير.

وهذا الرأي لا نستطيع الجزم به، ولا يعدو أن يكون تبيانًا لبعض النقاشات التي أثيرت حول التفكيك، وتأكيدًا لبعض الشبه الحاصل بين التفكيكية واليهودية.

تندرج فلسفة التفكيك في إطار حركة اليسار التي جاءت لتقوض دعائم المؤسسة الرأسمالية باسم الثورة، والهدم، والرفض، والشك، والتقويض.

وأيضًا فإن فلسفة "جاك ديريدا" فلسفة جيل الثورة والرفض والانتفاضة، والتمرد على قوانين العقل والمنطق والمؤسسة السياسية، وهذا يعني أن فلسفة "جاك ديريدا" فلسفة عدمية قائمة على الهدم والتقويض، وإزاحة الثوابت العقلية التي انبنت عليها الميتافيزيقا الغربية، القائمة على التمركز والبنية والعلامة والعقل. بمعنى أن

"التفكيكية" أتت في سياق سياسي معقد، بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة في سياق الحرب الباردة، وانتشار التسلح النووي، وإعلان ميلاد حقوق الإنسان، وظهور الفلسفات اللاعقلانية الثائرة على الوعي والعقل والنظام والانسجام والكلية، فكانت التفكيكية معبرًا رئيسًا للانتقال من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة(٤٠).

وعمومًا فإن من أهم العوامل التي ساهمت في إفراز الفلسفة التفكيكية هو تنوع المناهج الفلسفية والأدبية، واختلاف تصوراتها النظرية، وتعدد خلفياتها الإبستمولوجية، مثل: البنيوية اللسانية، والسيميوطيقا، والهيرمونيطيقا، والأنتروبولوجيا، والفينومينولوجيا(٤١)، "لقد وصفت الأرضية التي انبثق منها التفكيك، إذْ هي مرحلة من مراحل جدل المنهجيات وصراعها. وإذا كانت المنهجيات التقليدية، والمنهج البنيوي، تطمح إلى تقديم براهين متماسكة لحل الإشكال إنْ في عملية وصف الخطاب أو الاقتراب إلى معناه، فإن التفكيك يبذر الشك في مثل هذه البراهين، ويقوض أركانها، ويُرسي على النقيض من ذلك دعائم الشك في كل شيء، فليس ثمة يقين، ويكمن هدفه الأساسي في تصديع بنية الخطاب، مهما كان جنسه ونوعه، وتفحص ما تخفيه تلك البنية من شبكة دلالية، فهو من هذه الناحية ثورة على الوصفية البنيوية، فهو يذهب إلى أنْ لا ضابط قبل التفكيك، ولا ضابط في ظله، فهو رحلة شاقة، بل مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولا يتوفر له أدنى عامل من عوامل الأمان في أودية الدلالة وشعابها، دون معرفة، دون دليل، دون ضوابط واضحة، وكشوفاته ذاتية، فردية، لا غيرية، جماعية، حقلها الدلالة، وتعويم المدلول المقترن بنمط ما مِنْ القراءة؛ أي: استحضار المغيب، وهذا يقود إلى تخصيب مستمر للمدلول بحسب تعدد قراءات الدال. وبذا، فإن تنازع القراءات فيما بينها للخطاب، يفضي إلى متوالية لانهائية من المدلولات، لا يمكن لأحدها أن يستأثر بالاهتمام الكلي دون الآخر، فنقطة بدء القراءة ووجود الدال واحدة، لكن لا خط لنهاية الرحلة، فلا ضوابط رياضية توقف هدير المدلولات التي تستنفرها القراءات، فنبدأ بالشكل كالأجنة، مكونة بؤرًا دلالية، وحقولًا شاسعة لا يمكن تثبيت حدودها" (٤٢).

تلك كانت أهم أسباب ظهور التفكيكية، فالتفكيكيون حاولوا إطفاء النار بالنار، فلقد حاولوا أن يكونوا بديلًا عن البنيوية لما سقطت، لكن هذه الفلسفة كانت تحمل في طياتها منذ البداية عوامل هدمها وسقوطها وتشظيها، وهذا ما عبر عنه "جاك دريدا"

(٤٠) انظر: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة (ص١٩).
(٤١) انظر: التفكيكية في قفص الاتهام (ص١٨).
(٤٢) التفكيك الأصول والمقولات- عيون المقالات (ص٤٤،٤٥).

عندما قال:" هناك بالفعل عدد من الباحثين والفلاسفة الذين يعملون معي فيما يشبه التضامن أو الوفاق. إلا أن لدينا الإحساس بأن عملنا معاق هنا- يقصد الساحة الفرنسية والعالمية، باستثناء أمريكا واليابان- نوعًا ما، سيكون من المبالغة القول إنه مُحارب، ولكن مساحة تحركه محددة"(٤٣).

المبحث الثالث: أصول التفكيكية ومراحلها

أثبت "جاك دريدا" بوصفه قارئًا للتراث الغربي الفلسفي بأنه متشبع بما سماه "مركزية الكلمة"، أو "ميتافيزيقا الحضور"، وبين أن نظريات الفلسفة وأطروحاتها المختلفة ماهي إلا صيغ لنظام واحد، وهذا يتطلب منه تفكيكه، ولذا فقد قامت التفكيكية على مجموعة من المبادئ أولها:

١. **الثورة على العقل أو اللوغوس**(٤٤).

ثار "جاك ديريدا" على مجموعة من المقولات المركزية الكبرى، ولاسيما مقولة العقل أو اللوغوس، حيث يقول ديريدا:" أما بالنسبة لنقد هايدغر، فهذا ما كنت أقوم به في الواقع منذ البداية. ففي جوانب كثيرة من عمله، وجدتُه ما يزال حبيس الرؤية الميتافيزيقية. هناك لديه أولًا استمرار لِتَمَرْكُزِ اللوغوس أو العقل"(٤٥). وهذا يعني أن "جاك ديريدا" مثله كمثل "مارتن هايدغر" و"نيتشه"، الذين عملوا على الثورة على العقل الذي سيطر لأمدٍ طويل على التفكير الغربي.

كما عمل أيضًا على تقويض المنطق، مستبدلًا إياه بالاختلاف والتقويض واللاعقل، ويدل التمركز العقلي على مجموعة من الدلالات، كالحضور، والانسجام، والوحدة، والهوية، وتمركز الدال الصوتي... ويهدف "ديريدا" من وراء التمركز العقلي إلى تحطيم تلك المركزية المعينة وجوديًا بوصفها حضورًا لا متناهيًا، جاعلًا من هذه المقولة دليلًا لنقد مفاهيم التمركز، وهادفًا إلى معاينة نظم المقولات المعتمدة على الحضور، ويدعو إلى ضرورة التفكير بعدم وجود مركز، فالمركز لا يمكن لمسه في شكل الوجود، بل ليس له خاصية مكانية، كما أنه ليس مثبتًا موضعيًا ووظيفيًا، إنه

---

(٤٣) الكتابة والاختلاف (ص٥٥).

(٤٤) هذه المفردة " اللوغوس" من أشد الكلمات أهمية وأكثرها غموضًا في الفكرين الغربيين الديني والفلسفي، إذ تدل في سياقات شتى على عدة مدلولات منها: الخطاب واللغة والعقل الكلي وكلمة الإله، وغيرها. كما تعني اللفظ أو الصوت اللفظي، غير أن ارتباط هذا الصوت بكينونة متعالية جعلها صفة تخص قوى التحكم بالكون في الموروث الإغريقي وتخص الذات الإلهية في الفكر النصراني. انظر: دليل الناقد العربي (ص٢١٩)، وويكيبيديا الموسوعة العربية الحرة على الرابط http://ar.wikipedia.org/wik.

(٤٥) الكتابة والاختلاف (ص٤٧).

في حقيقة الأمر نوع من اللامكان، وبغيابه أو تقويضه يتحول كل شيء إلى خطاب، وتذوب الدلالة المركزية أو الأصلية المفترضة أو المتعالية، وينفتح الخطاب على أفق المستقبل دونما ضوابط مسبقة، وتتحول قوة الحضور، بفعل نظام الاختلاف، إلى غياب الدلالة المتعالية، إلى تخصيب للدلالة المحتملة.

وهكذا، تثور فلسفة "جاك ديريدا" على كل المدارس العقلية التي تشيد بالعقل والمنطق على حد سواء، ويدعو إلى التقويض من أجل تفكيك هذا التمركز الذي تحكَّم في الفكر الغربي لمدة طويلة(٤٦).

إن مصطلح التمركز حول العقل لفظة يونانية تعني الكلام أو المنطق أو العقل، وبهذا فإن حقلها الدلالي متشعب، بحيث تتطابق وما يذهب إليه "دريدا" في محاولته هد اليقينية المطلقة في الفكر والثورة على سكونيته، وبهذا فإن دلالة المصطلح تتشظى إلى حضور وتمركز الكلام أو العقل أو المنطق.

فـ"جاك دريدا" قد وجَّه نقدًا جوهريًا إلى المقولات الفكرية التقليدية، وسعى جاهدًا لقهر التقسيم التقليدي بين الخطاب الفلسفي والخطاب الجمالي، وتستند رؤيته في هذا الأمر إلى كشفه أن الحضارة الغربية نهضت حول العقل والمنطق وكانا معيارًا حاسمًا لتقويم أهمية كل شيء وأصالته. فـ"دريدا" بوساطة مقولة (التمركز حول العقل) يهدف إلى تحطيم تلك المركزية المعنية وجوديًا بوصفها حضورًا لا متناهيًا، جاعلًا من هذه المقولة دليلًا لنقد مفاهيم التمركز المعتمدة على الحضور ويدعو إلى ضرورة التفكير بعدم وجود المركز، فالمركز لا يمكن لمسه في شكل الوجود.

أما الحقول المعرفية التي امتد إليها نقد "جاك دريدا" حول التمركز المنطقي فمن أبرزها:

١- الأولية الابستمولوجية ويقصد بها عدّ العقل والإدراك الحسي مركزًا للحضور.

٢- الأولية التاريخية يرى "دريدا" أن أساس التمركز حول الصوت إنما ينهض على هذه الأولية التي تتحقق بوساطة النظم الميتافيزيقية للحضور اللانهائي للزمن الذي ينطلق من الماضي صوب آفاق المستقبل.

٣- الأولية الجنسية وتتضح أهمية هذه الأولية من خلال التمركز الذكوري، وذلك بواسطة سيادة الشخصية الذكورية، والغرور ورباطة الجأش، وكل هذا يعزز هوية الذكر وحضوره؛ ولفقدان هذه الخاصية كان مصيرها الغياب.

(٤٦) انظر: نظريات النقد الأدبي ومناهجه في فترة ما بعد الحداثة (ص٤٢،٤٣).

٤- الأولية الوجودية وهذه الأولية تعد أهم الحقول لمنهجية دريدا، وذلك من خلال عد الوجود حضورًا ذاتيًا صافيًا مقابل غياب العدم، إن الأولية الوجودية تعد من ناحية موضوعية أهم ملامح تأريخ الميتافيزيقيا، وترتبط بجذورها إلى النموذج الذي حدده أفلاطون للحقيقة بوصفها حوارًا صامتًا مع النفس، وأرسطو الذي عدها تفكيرًا ذاتيًا، وإن جميع هذه النماذج الانطولوجية للحضور استندت إلى استعارات مجازية، واختلافات زمنية(٤٧).

فمشروع "دريدا" يتمثل من خلال قراءاته للنصوص المختلفة التي تشكل كلها استكشافات لمركزية الكلمة الغربية وميتافيزيقا الحضور، حيث يقول:" هو تحديد الوجود بوصفه حضورًا بكل معاني هذه الكلمة، ومن الممكن أن نبين أن كل الكلمات المتصلة بالأساسيات والمبادئ أو بالمركز قد ظلت تسمى باستمرار ثابت الحضور سواء كان اسمه جوهر، وجود، مادة، الذات، أو كان التعالي أو الوعي أو الضمير أو الله"(٤٨).

٢. تقويض الميتافيزيقا

طعن "جاك دريدا" في الميتافيزيقا الغربية المبنية على المنطق، واللغة، والحضور، والتمركز العقلاني الذي يشكل معيار الحقيقة والبداهة واليقين، ووظف قدرته الحوارية العالية في ذلك، مستعينًا بمقولة التمركز العقلي للعمل على إنشاء هيكل نظريته الشاملة، بمواجهة التراكم الهائل للميتافيزيقا الغربية، فبعد أن أفلح بتجزئة الألفاظ والفرضيات الأساسية، ثم تطوير الأبنية التناقضية والحجج التناقضية التي تنطوي عليها هذه الألفاظ والفرضيات، انتقل إلى صلب موضوعه، ألا وهو تفكيك النظم العامة للفكر الغربي، بدءً من "أفلاطون"، فـ"أرسطو"، و"روسو"، و"ديكارت"، و"فرويد"، وصولًا إلى معاصرية من الفينومينولوجيين، هؤلاء الذين نشأ معهم على إفرازات تلك النظم الفكرية من أمثال:"هيدجر" و"هوسرل". لقد قاده الاستقراء والوصف التفكيكي إلى نسف الزعم بوجود معنى موحد له هوية أو تطابق ذاتي؛ لأن عمله الذي نهض على التعارض وكشف الأبنية المتناقضة تبين له وجود تعارض صميمي في هيكل تلك النظم، وهو ما أمده بوسائل متطورة لتفكيك تلك النظم

(٤٧) انظر: معرفة الآخر مدخل إلى نقد المناهج الحديثة (ص١٢٨-١٣٠)، والبنيوية وما بعدها من ليفي شتروس إلى دريدا (ص٢٠٧)، والتفكيكية عند جاك دريدا (ص٤٦٣)، وقيم الحداثة في فلسفة جاك دريدا (ص١٢)

(٤٨) الكتابة والاختلاف نقلًا عن: البنيوية وما بعدها من ليفي شتروس إلى دريدا (ص٢١٥،٢١٦). وقد بحثت عن النص في كتاب "الكتابة والاختلاف" فلم أقف عليه.

من الداخل بوساطة إعادة قراءتها من جديد(٤٩).

لقد صاغ دريدا مقولة اللوغومركزية، كتعبير على تحدي سلطة احتكار المعنى وثباته، فمصطلح تمركز ليس بالمصطلح الإشكالي، ويمكننا القول بأنه نوع من ممارسة التسلط والنفوذ في الإحاطة ببعض مراكز إنتاج المعنى وتفعيله. أما مصطلح اللوغوس فهو لفظة يونانية مشبعة بالدلالات، لا يمكن أن تجد لها مفهومًا قادرًا ولا ثابتًا، غير أن التشعب والغموض ليسا ناتجين عن غموض اللفظة في حد ذاتها، بل نتاج تعدد استعمالاتها في شتى ميادين الفكر والفلسفة، مما أدى إلى تشعب إحالاتها التي يمكن حصرها في ثلاثة فضاءات:

١. فضاء اللغة والتشكل اللساني: يشمل اللفظ والقول والخطاب.
٢. فضاء الفكر والعمليات الذهنية: يشمل الفكر والتعليل العقلي والشرح.
٣. فضاء الكون الحسي: تشمل الوجود والقوانين الطبيعية والمكان.

وعلى هذا الأساس تتشعب دلالة مصطلح اللوغومركزية وتتشظى إلى تمركز الكلام أو العقل أو المنطلق.

إن التمركز حول اللوغوس هي الاعتراف بوجود أصل اسمي يمثل مركزًا أو مصدر إشعاع يشع بالحقيقة، وبقية الأشياء لا يمكن أن تؤسس لهويتها إلا بالنظر إلى موقعها من هذا المركز، إذْ يعزي الطرف الأعلى إلى اللوغوس، ويحتل وضع حضور أعلى في حين يؤشر الطرف الأدنى على سقوط ما، ومن ثم تفترض نزعة التمركز حول اللوغوس أسبقية الطرف الأول ولا تفهم الطرف الثاني إلا بالرجوع إلى الطرف الأول.

إن اللوغومركزية حسب الطرح التفكيكي تنتج نوعًا من التفكير يتسم بنوع من الانغلاق والجمود، يؤدي إلى النرجسية الفكرية والانغلاق على الذات وعدم الاعتراف بالآخر، لذلك جعل مقولة الاختلاف أشبه بالترياق المناسب لمثل هذه الحالة والوسيلة القادرة على تخصيب الدلالة وجعلها في تدفق مستمر.

وفي النهاية يمكننا التأكيد على نقطة في غاية الأهمية، وهي طبيعة المصطلح، إذْ لم يختر "دريدا" مصطلح لوغوس بشكل ارتجالي أو عفوي، لقد كان اختيارًا ناتجًا عن بصيرة

إنه يقصد بهذا الاختيار وبشكل واضح ومختصر، نسف كل المرجعيات والأصول

(٤٩) انظر: نظريات النقد الأدبي ومناهجه في فترة ما بعد الحداثة (ص٤٤).

مهما كانت طبيعتها(٥٠).

٣. نقد فكرة الهوية والخصوصية والجذور الأصلية

إن نقد فكرة الهوية من أصول التفكيكية، إذ إن "جاك دريدا" يرفض التمركز العقلي، ويمقت كل انطواء على تسييد العرق أو الجذر، أو التبجح بالخصوصية المركزية، أو الإيمان بهيمنة عنصر على آخر.

ويرفض أيضًا أسطورة الأصل، كأن ندافع- مثلًا- عن الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود، أو نرجح كفة العرق الغربي أو العرق الآري على حساب الأعراق الأخرى كما فعل المستشرق "رينان"، أو نتعصب لقومية جنسية مَا كما فعل "مارتن هايدجر"، حينما تعصب للقومية الألمانية الجرمانية. فعن طريق التفكيك والتقويض والتشتيت، يتم محاربة كل فكر عرقي، ومجابهة كل تمركز سائد مهيمن(٥١).

٤. تفكيك مفهوم التاريخ

يرفض "جاك ديريدا" التاريخ الكلاسيكي القائم على التمركز العقلي وهيمنة الصوت الواحد، ويدعو إلى تاريخانية جديدة متعددة الأصوات، تهتم بالشعوب التي تعيش على الهامش، وتهتم كذلك بالثقافات المقصية، حيث يقول:" أما عن نسيان التاريخ، فقد أوضحت مرارًا وتكرارًا أنني تاريخانيّ بصورة كاملة، وأن ما يهمني دائمًا هو الانحدار التاريخي لجميع المفهومات التي نستخدمها، وجميع حركاتنا، وأنه إذا كان هناك شيء لا يمكن نسيانه فهو التاريخ. إلا أن ما شجّع على إطلاق هذه التهم أو غذَّاها، هو كون مفهوم "التاريخ" بقي مستخدمًا لدى الكثير من الفلاسفة والمؤرخين ومؤرخي الفلسفة، وسواء أتعلّق الأمر بالمثالية أم المادية، ولدى "هيغل" أم لدى "ماركس"، ضمن نزعة غائية بدت لي هي الأخرى ميتافيزيقية، مما جعلني أقف منها موقف المتحفظ، أو المحترس باستمرار، ولكن ليس باسم لا- تاريخية أو لا- زمنية، وإنما باسم فكر آخر للتاريخ" (٥٢).

٥. أسبقية الكتابة على الصوت

يعتبر "جاك ديريدا" أن الكتابة هي أصل النشاط الثقافي الإنساني، وليس الصوت أو الدال الصوتي. مما يعني أسبقية الثقافة (الكتابة) على الطبيعة (الصوت)، وإذا كان "فرديناند دوسوسير" قد أعطى الأهمية الكبرى للصوت أو الفونيم باعتباره يمثل المنطق والعقل على حدٍ سواء، فإن "جاك ديريدا" قد أعطى أهمية كبرى للكتابة باعتبارها تعني التعدد والتشتت

(٥٠) انظر: تلقي التفكيكية في النقد العربي الحداثي- علي حرب أنموذجًا (ص٥١-٥٤).
(٥١) انظر: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة (ص٣٩،٤٠).
(٥٢) الكتابة والاختلاف (ص٥٢).

والاختلاف.

ويخلص إلى أن أحد أكثر السبل تأثيرًا التي نهض عليها التمركز العقلي في الفلسفة الأوروبية، هو اهتمامها بالكلام على حساب الكتابة. فالتمركز المنطقي هو في حقيقة الأمر تمركز صوتي، ويرجع جذر هذا الاهتمام إلى أفلاطون الذي عبَّر عن الحقيقة قائلًا: إنها حوار الروح الصامت مع النفس. وهذا التأكيد هو إحدى الدعائم الأساسية لحضور المتكلم مع نفسه، فالحقيقة حسب "أفلاطون"، ما هي إلا المباشرة الصريحة للنفس، كما يتمثل حضور التمركز الصوتي في الحوار بين متحدثين يجمعهما زمان واحد، ومكان واحد، وما سوف يرشح عن حديثهما من معنى أو مقصد حول ما قالاه بالضبط، أو ما قصداه بقولهما على وجه الدقة[٥٣].

يُعد مفهوم علم الكتابة أو الغراماتولوجيا مفهومًا تفكيكيًا صاغه "جاك دريدا" وأفرد له كتابًا خاصًا وهو كتاب (في علم الكتابة) [٥٤]، وهذا المفهوم ذو علاقة وثيقة بالتمركز الصوتي، كونه قائم على تفضيل الكلام الملفوظ على المكتوب، فالمركزية الكلامية أو المركزية الصوتية كما هي مبدأ أساسي للميتافيزيقيا الغربية، وهي سيطرة الكلام المنطوق الذي يضمن حضور المعنى، ذلك أن المقولات الفلسفية الرئيسية من "أفلاطون" إلى "هيدغر" تنزع إلى إعطاء الأولوية للكلام والحذر من الكتابة، إننا الآن بصدد التعامل مع ثنائية ضاربة بجذورها في الحضارة الغربية، ألا وهي ثنائية الكلام/ والكتابة، ثنائية مثلها مثل ثنائية الدال والمدلول التي صاغها "دي سوسير" في تقسيمه للعلامة اللغوية، مركزًا اهتمامه على الدال بوصفه صورة صوتية، والنتيجة أن كان يرزح تحت وطأة التمركز الصوتي، إن هذا هو مصير الثنائيات في الحضارة الغربية، فما من جمع بين قطبي ثنائية إلا ومورس نوع من العنف على أحدهما.

إن الكتابة تمثل نظامًا معرفيًا حضاريًا يمكن أن يعرف بأن سلسلة من الإشارات المادية التي تمارس عملها في غياب المتكلم، إن نقطة الخلاف الجوهري بين الكلام والكتابة هي الحضور حضور المتكلم في حال حدوث الكلام، وبالتالي حراسته للمعنى وقتله لفعل الدلالة، على عكس الكتابة التي استطاعت التحرر من كاتبها، وتستطيع فتح المجال أمام حرية التأويل واللعب الحر للمدلولات.

---

(٥٣) انظر: نظريات النقد الأدبي ومناهجه في فترة ما بعد الحداثة (ص٤٤-٤٦).

(٥٤) الكتاب مطبوع ومترجم للعربية، ترجمه وقدم له: أنور مغيث ومنى طلبة، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م، الناشر: المركز القومي للترجمة: إشراف جابر عصفور.

تتميز الكتابة عن الكلام بثلاثة خصائص: الأولى: أن الإشارة المكتوبة هي علامة يمكن تكرارها، ليس فقط بغياب الذات التي تطلقها في سياق معين، بل أيضًا لمتلق معين. والثانية: أن الإشارة المكتوبة يمكن أن تخترق سياقها الواقعي، وأن تُقرأ في سياق مختلف بغض النظر عما نواه كاتبها بها. والثالثة: أن الإشارة اللغوية عُرضة للانزواء، بمعنيين الأول: أنها منفصلة عن بقية الإشارات في سلسة معينة. والثاني: أنها منفصلة عن الإحالة الحاضرة، أي أنها تشير إلى شيء يمكن ألا يكون حاضرًا فيها واقعيًا.

بما أن هذه هي خصائص الكتابة، فما الذي يجعلها أقل شأنًا من الكلام؟ أهي أسباب تقنية تواصلية؟ أم أن هناك أسبابًا أخرى؟

إن استخدام مصطلح علم الكتابة من لدن جاك دريدا، هو استكشاف لأبعاد التمركز حول الكلام، الذي تنامى مع عصور الفلسفة الغربية، منذ أيام سقراط وأفلاطون إلى العصر الحديث وتحديدًا منتصف القرن العشرين للميلاد، وقد تأتي تركيز الخطاب الفلسفي الغربي على عنصر الكلام، وإهمال وتهميش الكتابة نتيجة كرهها، والخوف من قدرتها على توسيع الأفق الدلالي فضلًا عن قدرتها على تدمير الحقيقة الفلسفية، التي يرى الفلاسفة أنها نفسية خالصة.

هذه الحقيقة النفسية أو الروحية، لا يمكن أن يعبر عنها إلا صاحبها، عن طريق الكلام فقط، ذلك أن الكلام هو وحده القادر على حراسة قصدية المتكلم، والتعبير عن حالاته النفسية بأمانة تامة.

أما الكتابة فهي تعاني من غياب المرسل والانفصال عن السياق، مما يؤدي إلى حضور التأويل وغياب المعنى الأحادي الذي يضمن حضور الحقيقة النفسية.

وعلى هذا الأساس فإن أسباب ذم الكتابة، هي أسباب أخلاقية ونفسية واجتماعية.

وبالتالي فإن مرد هذا الذم للكتابة، هو البحث عن المعنى الأحادي المستند إلى الحقيقة فلسفية كانت أو عقلية أو لاهوتية؛ لذلك فإن مشروع علم الكتابة لا يخرج عن السياق العام لفلسفة التفكيك[٥٥].

٦. تقويض الكلية والانسجام

يعمل "جاك ديريدا" على تقويض مفهوم الكلية والانسجام في الحقل الثقافي، ولاسيما في مجال تحليل النصوص الأدبية والفلسفية، يقول "جاك دريدا":" فأنا لا أتعامل والنص؛ أي نص، كمجموع متجانس. ليس هناك من نص متجانس. هناك في كل

(٥٥) انظر: تلقي التفكيكية في النقد العربي الحداثي –علي حرب أنموذجًا- (ص٥٥،٥٦).

نص، حتى في النصوص الميتافيزيقية الأكثر تقليدية، قُوَى عَمَلٍ هي في الوقت نفسه قوى تفكيك للنص. هناك دائمًا إمكانية لأن تجد في النص المدروس نفسه ما يساعد على استنطاقه، وجعله يتفكك بنفسه"(٥٦).

٧. تفكيك النصوص والخطابات

يعتمد "ديريدا" على آلية التفكيك في تقويض النصوص، وتشريح الخطابات، سواء أكانت أدبية أم فلسفية، وما يهم "ديريدا" في القراءات التي يحاول إقامتها ليس النقد من الخارج، وإنما الاستقرار أو التموضع في البنية غير المتجانسة للنص، والعثور على توترات، أو تناقضات داخلية، يقرأ النص من خلالها نفسه، ويفكك نفسه بنفسه، وأن يفكك النص نفسه، فهذا لا يعني أنه يتبع حركة مرجعية ذاتية، حركة نص لا يرجع إلا إلى نفسه، وإنما هناك في النص قوى متنافرة تأتي لتقويضه وتجزئته. كما يعني هذا أن "ديريدا" يستبعد الخارج النصي، ويتموقع داخل النص أو الخطاب ليمارس لعبة الهدم والتفكيك والتقويض، بغية الإطاحة بالطابوهات الموروثة، ونقد المقولات المركزية السائدة في الثقافة الغربية، وفضح الأوهام الإيديولوجية، ولاسيما إيديولوجية الدولة المهيمنة، والمؤسسات الحاكمة.

لكن التفكيك الذي يمارسه ليس بالمفهوم البنيوي والسيميائي الذي يعقبه التركيب، وإعادة البناء بالمفهوم الإيجابي، فالتفكيك لديه من أجل التفكيك والتقويض والاختلاف؛ أي: باسم الهدم السلبي، والتشتيت المتنافر(٥٧).

٨. تعدد اللغات والمعاني والنصوص

يرى "جاك ديريدا" أن التفكيكية لا تؤمن بلغة واحدة، أي: تؤمن بلغات متعددة عبر آليات الاختلاف والتناقض والحوار والتقويض والتناص. وهذا يعني التشديد على التعددية اللغوية والدلالية والثقافية، ويمكن القول: إن تفكيكية "جاك ديريدا" تفكيكية تعددية اختلافية، لا تؤمن بمنطق الوحدة، والانسجام، والكلية، والعرقية، والخصوصية، كما تأبى منطق الهيمنة والتمركز والتثبيت. ولقد أصبح التناص، ولاسيما مع "جوليا كريستيفا" وجماعة "ييل(٥٨)" الأنكلوسكسونية، من أهم التصورات النظرية والتطبيقية التي اعتنت بها التفكيكية بصفة خاصة، و(ما بعد الحداثة) بصفة عامة، وخاصة أن التناص يعبر عن تعدد المعاني، واختلاف الدلالات،

---

(٥٦) الكتابة والاختلاف (ص٤٩).
(٥٧) انظر: مناهج النقد الأدبي الحديث (ص٢٦٩).
(٥٨) تضم هذه المدرسة كلًا من:(بول دي مان- هيلس مُيللر- جوفري هارتمان- هارولد بلوم). انظر: البنيوية وما بعدها بين التأصيل الغربي والتحصيل العربي (ص١٢٥).

وتكرار النصوص والخطابات تناسلًا وتوالدًا.

وبعبارة أخرى، لم يقف التفكيك عند هذه الحدود، فقد اغتنى إثر اكتشاف التناص، ولم تعد آفاق الدلالة منظورة، فضلًا عن ذلك، إن اكتشاف التكرارية من قبل ديريدا قد ألغى الفواصل بين النصوص الأدبية.

ولما كانت النصوص متداخلة مع غيرها، يصبح مستحيلًا حصر دلالاتها. ويقوم "ليتش" بتنظيم التكرارية ضمن نظرية طريفة، فيقول: إن تاريخ كل كلمة في النص مضروبًا في عدد كلمات ذلك النص، يساوي مجموع النصوص المتداخلة مع النص الأخير قيد القراءة، ولتعذر تحديد تاريخ كل كلمة في النصوص السابقة؛ فإن النصوص المتداخلة لا حصر لها، ومن ثمَّ فإن دلالاتها لا يمكن الوقوف عليها لسعتها وتعددها[٥٩].

٩. مبدأ الاختلاف

يرى "جاك ديريدا" أن المعنى في النصوص والكتابات المعطاة يتحدد نتيجة تعدد المدلولات بين الكلمات المختلفة. ويعني هذا أن الاختلاف ميسم إيجابي في منهجية ديريدا، فالمعاني تتعدد بتعدد الاختلافات. فهو يرى أن لذلك المعنى مدلولات مختلفة لا متناهية ومتعددة، وبهذا، يكون الاختلاف ملمحًا إيجابيًا يساهم في إثراء اللغة والنص الأدبي أو الفلسفي.

ولتوضيح هذا النوع من الاختلاف الإيجابي، استحدث "دريدا" مصطلح المقابل للمصطلح السلبي لمفهوم الاختلاف الكلاسيكي[٦٠]، يقول ديريدا مميزًا بين الكلمتين:" أعتقد أن القلق حول ترجمة هذه المفردة يتجه إلى صميم الشكل. فهي ليست غير قابلة للترجمة إلى العربية فحسب، وإنما حتى إلى الإنجليزية وسواها من اللغات، وحتى إلى الفرنسية بمعنى ما، من حيث إنها تتعارض مع الكلمات المنحدِرة من الميراث اللاتيني، كما أنها في اقتصادها نفسه غير قابلة للإبدال بمفردة أخرى. ولكن يمكن بالطبع أن نوضح استخدام هذه المفردة، وأن نقيم خطابًا حول استخدامها، وحول ما يعبّر عن نفسه فيها بصورة اقتصادية، أو مقتصدة. إنني أكتب في الحقيقة على هذا النحو، وأعتبر أنّني أكتب حقًا حين أذهب في اللغة إلى الحدود التي تصبح معها شبْه عصية على الترجمة. هذه طريقة في عدم نسيان أننا نكتب دائمًا داخل لغة معينة... فأنا أعتقد أنها تتضح من خلال سلسلة من المفردات الأخرى التي تعمل معها. "الكتابة" مثلًا، أو "الأثر" أو "الزيادة" أو "الملحق"، وهي جميعًا كلمات مزدوجة القيمة، أو

(٥٩) انظر: معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية (ص٦٤).
(٦٠) انظر: مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية (ص٣٦٩).

ذات قيمة غير قابلة للتعيين: "الأثر" هو ما يشير وما يمحو في الوقت نفسه؛ أي: ما لا يكون حاضرًا أبدًا. و"الزيادة" هي ما يأتي لِيْنضاف وما يسد نقصًا... إنها إجمالًا كلمات ليست كلمات، ولا مفهومات، وليست قابلة للفصل عن اللغة، وهي تقوم بعمل مماثل للـDifferance [للاختلاف بحسب التسمية الدريدية]، وإن كانت مختلفة عنها أيضًا. إنها إذن سلسلة تتمتع كل حلقة منها باستقلالها النّسبي، ولكن تتكرر فيها الحَلَقة المجاورة"[٦١]. فالاختلاف عند "جاك دريدا" يقوم على تلاشي المعاني، وتعدد المدلولات والمعاني الناتجة عن التشتيت والتضاد والتناقض.

١٠. الحضور والغياب

ينبني الاختلاف على فلسفة الحضور والغياب، بمعنى أن الدوال تحمل مدلولات تتعدد بالاختلاف، فيحضر هذا المعنى ويغيب ذاك. و" بهذا تتناسل الاختلافات، وتتعدد المدلولات توالدًا وتلاشيًا وتفكيكًا وتأجيلًا وتشتيتًا. ويعني هذا كله أن ثمة وحدات تحضر، ووحدات تغيب في الوقت نفسه. ويؤكد هذا انبناء فلسفة التفكيك على فلسفة التقويض، وآلية تشتيت المعاني وبعثرتها"[٦٢].

١١. نقد الثوابت البنيوية

تنبني فلسفة التفكيك على نقد جميع الثوابت البنيوية التي انبنت عليها البنيوية، كاللغة، والصوت، والدال وغير ذلك من المفاهيم والمقولات العقلية والثنائيات البنيوية، ومن ثمَّ فالتفكيكية بنيوية وغير بنيوية في الوقت نفسه، ومن ثم تتأرجح التفكيكية بين الداخل والخارج، بين البداية والنهاية، بين البنية واللابنية[٦٣]، يقول ديريدا:" كانت البنيوية يومذاك مهيمنة، وكان التفكيك ذاهبًا في هذا الاتجاه ما دامت المفردة تُعْرِب عن انتباه معين إلى البنْيات structures التي ليست، ببساطة، لا أفكارًا ولا أشكالًا، ولا تركيبات ولا حتى أنساقًا. كان التفكيك هو الآخر حركة بنيوية، أو بأية حال، حركة تضطلع بضرورة معينة للإشكالية البنيوية. ولكنه أيضًا حركة "ضد- بنيوية"، وهو يدين بجانب من نجاحه لهذا اللبس. كان الأمر يتعلق بحلّ، بفكّ، بنزع رواسب البنيات، جميع ضروب البنيات (لغوية و" تمركزية لوغوسية" و"تمركزية صواتية"، بما أن البنيوية كانت يومها خاضعة بخاصة إلى نماذج لغوية، نماذج علم اللغة أو الألسنيّة المدعو بالبنيويّ"[٦٤]. وهذا يعني أن التفكيكية جاءت لتقوض جميع

---

(٦١) الكتابة والاختلاف (ص٥٣).
(٦٢) مناهج النقد الأدبي (ص٣٧٠).
(٦٣) انظر: التفكيكة في الفكر العربي القديم (ص٦٦).
(٦٤) الكتابة والاختلاف (ص٥٩).

الثوابت البنيوية والثنائيات التي قامت عليها، خاصة ثنائية الصوت والكتابة، وثنائية الدال والمدلول[٦٥].

١٢. التأويل المتناقض والمختلف

يستند الفكر التفكيكي إلى التأويل المبني على الاختلاف والتناقض، وخاصة في مجال الأدب والنقد كما عند الأنجلو سكسونيين؛ لأن "ديريدا" حصر التفكيك في بداية الأمر في مجال الفلسفة ليس إلا في حين توسع التفكيك مع جماعة "ييل" ليشمل البلاغة والسيميوطيقا وقراءة النص الأدبي.

وعليه، تستعين التفكيكة بقراءة تقويضية همها الأول هو كشف التناقضات والاختلافات الفكرية، وترجيح الهامش على المركز، والاهتمام بالمدنس على حساب المقدس. ومن ثمَّ فالقارئ هو الذي يمارس القراءة التفكيكية[٦٦]. وقد تفرع عن هذا المبدأ العام عدة تعاليم يمكن إجمالها فيما يلي:

١. يجب أن يهدم النص حتى يتهاوى نسيجه التعبيري.

٢. أن النص لا يتحدث عن خارجه (مرجعه)؛ بل إنه لا يتحدث عن نفسه، وإنما تجربتنا في القراءة هي التي تحدثنا عنه.

٣. أن النص يمكن أن يقرأ بتجاوز لمعناه التواضعي والاصطلاحي، وهذه القراءة هي نوع من اللعب الحر.

وعلى هذا الأساس،" فإن تأويلات النص وتعدداتها متعلقة أساسًا بمؤهلات القارئ، فالنص بمثابة بُصْلَة ضخمة لا ينتهي تقشيرها، وإن السياق العام ومساق النص لا أهمية لهما في التأويل؛ لأن المقصود ليس الوصول إلى حقيقة ما يتحدث عنه النص، وإنما الهدف تحقيق المتعة؛ ولذلك فإنه لا اعتبار للتأويلات الأخرى التي ليست إلا إركامات ممنوحة من قِبَل النقاد للنص ليلائموا بينه وبين قيمهم. تلك هي خلفيات التفكيكيين، وهي خلفيات تستقي من تيارات فلسفية تهدف إلى تحطيم البنيات العتيقة بمختلف أشكالها وأنواعها، وإلى تفضيل الشكل، وإلى الأخذ بنسبية مطلقة قد تصل إلى العدمية. ونفهم من هذا كله غياب الدلالة والحقيقة، ورفض المعطى الخارجي (صاحب النص، وظروفه، وسياقه، وعتباته)، والتخندق داخل النص بين الانفتاح والانغلاق، والتلذذ بالنص في أثناء عملية القراءة"[٦٧].

---

(٦٥) انظر: التفكيكة في الفكر العربي القديم (ص٦٦).
(٦٦) انظر: التفكيكة في الفكر العربي القديم (ص٦٦).
(٦٧) نظريات النقد الأدبي ومناهجه في فترة ما بعد الحداثة (ص٤٧-٥٤). وانظر: التفكيكية عند جاك دريدا (ص٤٦٦)، والتفكيكية في الفكر العربي المعاصر (علي حرب أنموذجًا)(ص٢٦ وما بعدها).

المبحث الرابع: النقد

يمثل المنهج التفكيكي اليوم خطرًا كبيرًا في مقاربة النصوص وقراءتها وتأويلها، لأنه قائمٌ على التشكيك في الثوابت واليقينيَّات، وعلى زَعزعة الثقة في أيِّ خطابٍ أو نصٍّ؛ سواء أكان هذا النص سماويًّا، أم بشريًّا، وحيًا من ربِّ العالمين، وكلامًا له، أم كلامًا للناس، فالتفكيك يسعى لتعويم المدلول المقترن بنمط ما من القراءة واستحضار المُغيب بحثًا عن تخصيب مستمر للمدلول على وفق تعدّد قراءات الدال، مما يفضي إلى متوالية لا نهائية من الدّلالات(٦٨). ولا يحاول الاقتراب إلى الخطاب إلا بوصفه نظامًا غير منجز إلا في مستوى كونه ملفوظًا، بعبارة أخرى: هو تمظهر خطي قوامه سيل من الدوال، وهو ينتج باستمرار ولا يتوقف أبدًا حتى لو مات كاتبه، وهذا ما يفسر عناية التفكيك بالكتابة دون الكلام(٦٩).

وهي انحراف خطير في مداخلات النقد الجديدة، وفك الدوال عن معظم الكتابات، فهي قراءة متضادة، تثبت معنى للنص ثم تنقضه؛ لتقيم آخر على أنقاضه في إطار إساءة القراءة، وقراءة مزدوجة أيضًا تسعى إلى دراسة النص مهما كان بإثبات المعاينة الصريحة، ثم تسعى إلى تقويض ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما يحمله النص من معاني تتناقض مع ما يصرح به، فهي تسعى إلى إثبات أن ما هو هامشي قد يصير مركزيًا إذا نظرنا إليه من زاوية مغايرة، وتعطي السلطة الحقيقية للقارئ لا للمؤلف، كما تركز على الكتابة باقتلاع مفاهيم الكلام والصوت، وتقتل أحادية الدلالة، وتدعو إلى تشتت المعنى بتخليص النّص من القراءة الأحادية، وتدعو إلى موت المؤلف وميلاد القارئ وتعتبر النصّ جملة من النصوص السابقة أو إقصاء لنصوص متعددة التناص(٧٠).

كما أنها قراءة تسعى للبحث" عن اللبنة القلقة غير المستقرة وتحركها حتى ينهار البنيان من أساسه ويعاد تركيبه من جديد. وفي كل عملية هدم وإعادة بناء يتغير مركز النص وتكتسب العناصر المقهورة أهمية جديدة، يحددها بالطبع أفق القارئ الجديد"(٧١).

فـ"التفكيك" لا يقدم ولم يقدم نظرية بديلة للمذاهب أو النظريات التي يدمرها أو

---

(٦٨) انظر: دليل النظرية النقدية المعاصرة، مناهج وتيارات (ص١٢٣).
(٦٩) انظر: جاك دريدا: ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب (ص٧٩)، ودليل النظرية النقدية مناهج وتيارات (ص١٢٣،١٢٤).
(٧٠) انظر: المرايا المحدبة (ص٣٣٩).
(٧١) انظر: المرجع نفسه (ص٣٣٩).

يرفضها[٧٢].

وهي تقوم على إقصاء كل قراءة أحادية المرجعية والتأويل تعنى إلى واحديه الدلالة إلى النص، بل تسعى إلى جعل مدلولية النص بين يدي المتلقين يفككونه إلى المرجعيات التي بني عليها، فيقفون على هذه المرجعيات ويقرؤون النص وفقًا لها مهملة ومهدمة للنسق الذي يقوم عليه مرجعية النص في اعتقادها أن النص تركيب لغوي غير متجانس يعتبر انعتاق الدال عن المعنى المرتبط بالمرجعية التقليدية لحدود التفسير التي حاضر بها الخطاب النقدي التقليدي المدلول وانفتاحه على التفسير اللامحدود من المرتكزات الأساسية للتفكيكية، و هو يقوم على إلغاء مدلول ليحل محله اللامدلول. وبذلك خطا الخطاب النقدي مع التفكيكية خطوة جديدة في مساره تجدد أخذًا بمبادئ الألسنية مستثمرًا لها في فتح آفاق جديدة للنص الأدبي[٧٣].

وحتى نتعرف أكثر على خطورتها على النصوص الشرعية، نقف على أهم ما تنادي به التفكيكية:

١. يزعم أصحاب التفكيك أنَّ جميع النصوص لا تَنزع إلى التناسُق والانسجام والانضباط، بل هي مُفككة متنافرة، وهي تحتوي على عناصر تمزيقٍ، أو نقاط قطْعٍ، أو فجوات تَسمح- حين تُفحص وتُدرك بدقَّة- بقراءات أخرى هامشيَّة، قراءات تضع المعنى الواضح ظاهريًّا، أو الحتْمي، أو المألوف- موضع التساؤل. والسؤال البدهي: إذا صحَّ أنَّ بعض النصوص مُفككة غير منسجمة ولا مترابطة، فهل يصحُّ أن يُعمَّم هذا الحكم حتى تدخلَ فيه النصوص المقدَّسة والنصوص البشرية على حدٍّ سواء؟ وأين من هذا الحكم الضال نصوصُ القرآن الكريم المُعجزة المُحكمة الباهرة؟ وأين منه كلام رسول الله ﷺ الفصيح البليغ المُحكم؟ بل أين ذلك من كلام الفُصحاء والبُلغاء المُتقن السَّديد؟

٢. أنَّ العلاقة بين "الدالّ"؛ أي: اللفظ أو الكلمة، و"مدلوله"؛ أي: معناه، والمفهوم منه علاقة غير ثابتة ولا يقينيَّة، فالمفهوم من لفظ "شجرة" مثلًا عندما يُلفظ، ليس موجودًا فيه، وإنما هو مُعتمد على ما يَفهمه المتلقي من هذا اللفظ، عندما يُقارنه بألفاظٍ أخرى؛ مثل:"بقرة"، أو "ثمرة"، أو ما شاكَل ذلك من الألفاظ. ولا شكَّ في ضلال هذا الكلام، إذْ هو يمثِّل أقصى درجات الشكِّ، الشك في اللغة نفسها، وفي قُدرتها على التواصُل والتفاهم. وإنَّ المعنى عندئذٍ لا يَحضر في أي دالٍّ حضورًا مؤكَّدًا أو قطعيًّا، إنه "ليس حاضرًا أبدًا - بكامل حضوره - في أي دليلٍ وحيد، وإنما

(٧٢) انظر: المرجع نفسه (ص٣٠٩).
(٧٣) انظر: التفكيكية في الفكر العربي المعاصر (علي حرب أنموذجًا) (٧-٩).

هو في حالة من الترجرُج والغياب، وعندما أقرأ جملةً، فإن معناه يظل مُرتقبًا نوعًا ما على الدوام، مؤجَّلًا ومنتظرًا، دال يُسلمني إلى آخر، وذلك لآخر.

وهكذا تُصبح اللغة نفسها- عند التفكيكيين- في موضع الشكِّ، غير متماسكة، وعاجزة عن التعبير عن أي شيءٍ تعبيرًا ذا دَلالة واضحة؛ أي: ينتفي ما يُسميه علماء الأصول عندنا "قطعيَّة الدَّلالة"، ويُصبح كلُّ شيءٍ عند هؤلاء القوم "ظنيَّ الدَّلالة"، قابلًا للأخْذ والرد، والمراجعة والشك، واختلاف الآراء بلا حدٍّ.

٣. لو أنَّ أهل "التفكيك" جعَلوا - في هذه التفسيرات الكثيرة المتعدِّدة - النصَّ مرجعَهم، كما يفعل أصحاب المنهج البنيوي مثلًا، لهانَ الخطب؛ إذ ما دامت لغة النص المُفسَّر وطبيعة صياغته وأسلوبه، تُساعد على هذا التفسير أو ذلك، فلا ضَيْرَ من ذلك. ولكنَّ أصحاب التفكيك يمضون في الغُلو والتطرُّف شوطًا أبعدَ، فيجعلون القارئ وحْده صاحب السلطان في التفسير، فهو الذي يُؤَوِّل النص كما يشاء، وهو الذي يُحدِّد دَلالاته ومَراميه. وإذا كان للقارئ- حقًّا- شأنٌ لا يُنكره أحدٌ، وإذا كان فَهْم النص وتأويله، واكتشاف أسراره العميقة الدفينة، يَعتمد على القارئ الأريب الذكي، لا على القارئ العادي، وإذا كانت صنعة التأويل والتفسير تَحتاج إلى مهارة ودُربة، وأدواتٍ معرفيَّة كثيرة، إذا كان ذلك كله حقًّا لا نزاعَ حوله، ولا جدال فيه، فإن الأحقَّ فيه أنَّ سلطان القارئ أو المفسِّر المُؤوِّل، ليس سلطانًا مُطلقًا؛ كما يقول هؤلاء التفكيكيون، ولكنَّه سلطان مقيَّد بالنص ذاته. إنَّ كل حركة يَخطوها المفسِّر محكومة بلغة النص وصياغته وأسلوبه، وبمعرفة ملابسات أخرى كثيرة، يُهملها هؤلاء القوم.

إن قراءة أي نصٍّ وتفسيرَه أو تأويله، تَخضع - في مختصرٍ من القول- لعاملين اثنين، هما:

١. احتمالية لغته؛ أي: ما يُرسله الدالُّ إلينا؛ أي: ما تؤدِّيه الألفاظ من المعاني، وما تُعبِّر عنه الكلمات من المفاهيم المتَّفق عليها عند مَن يتخاطبون بهذه "اللغة"، وكما هو متعارَف عليه في معاجمها وقواعدها وصرْفها، وليس على سلطان القارئ "السائب" لا المُنضبط؛ كما يريد أصحاب التفكيك.

٢. جوُّ النص والملابسات الداخلية والخارجية التي كانت وراء ولادته، ذلك إنَّ النصوص لا تَنشأ من الفراغ، وعند تفسيرها وتأويلها، لا يُكتفى فقط بدَلالات ألفاظها، ومعاني كلماتها، أو بمعرفة قواعد اللغة، وأعرافها، بل لا بدَّ من معرفة الجو النفسي والاجتماعي، والسياسي والفكري، الذي خرَج النصُّ من رحمه، وكان نتاجًا من نتاجاته.

إن من جوِّ النص مثلاً عند تفسير نصٍّ قرآني، معرفة مناسبته، وزمان نزوله،

ومكان نزوله؛ مكي أم مدني، والناسخ والمنسوخ فيه، وغير ذلك من المعارِف التي لا بدَّ للمفسِّر - زيادةً على معرفته باللغة والصرف والبلاغة - من معرفتها، وإتقان أصولها وفروعها. ولكنَّ التفكيك الذي نتحدَّث عنه يُهمل هذه الملابسات جميعها، ولا يُعوِّل عليها، يُعوِّل التفكيك على القارئ وحْده، لا على النص، ولا على المؤلِّف، ولا على مصدر النص، ولا على مناسبته، وجوِّه، وملابسات تأليفه.

القارئ وحْده هو السلطان، يفعل بالنص ما يشاء، يُؤَوِّله كما يرى، يستطيع أن يُقوِّله ما لَم يقل، وسيقول له التفكيك- عن أي تأويل يراه-: إن تأويلك هذا مقبول، ولكنَّه غير نهائي ولا قطعي، أفْسِح المجال لقارئ آخرَ أن يقول ما يريد، أصْغِ إليه كما أصغَينا إليك، واقْبَل تأويله كما قَبِلنا تأويلك.

وهكذا تضيع حقيقة النصوص في هذه البدعة الخطيرة المُسمَّاة بنظرية القراءة، أو بـ"نظرية استجابة القارئ"، كما يَحلو لبعضهم أن يدعوها.

إن جوهر المنهج التفكيكي- كما يقول "جاك دريدا"-: هو ما سمَّاه "غياب المركز" الثابت للنص(٧٤)؛ أي: غياب المعنى اليقيني، أو الحقيقي، الذي يُمكن أن يقال عن نصٍّ من النصوص: إنه يَحمله. وإذا كان ذلك كذلك، فإن النصوص لا تقول أبدًا شيئًا محددًا قاطعًا، ومِن ثَمَّ يُصبح من حقِّ القارئ أن يَستخرج منها ما يشاء، وأن يَبحث باستمرار عن هذا المخبأ المُبهم الكامن في أعماق النص، ولكنَّه - مهما اجتهَد في هذا البحث، ومهما حاول وجَدَّ - فلن يستطيع الوصول إلى اليقين.

إن التفكيك الذي رَكِب موجته اليوم بعض الباحثين والدارسين العرب، وراحوا يُطبِّقونه أحيانًا على تفسير النصوص الشرعية المقدَّسة هو اتجاه خطير، قائمٌ على الشك والعدميَّة في ظلِّ غياب رُوح الإيمان واليقين عن الفكر الغربي الحديث(٧٥)، يقول ميلر- الناقد الغربي- واصفًا التفكيك بـ"العدمية": " العدمية- لقد أصبَحت هذه الكلمة لقبًا للتفكيك الحاضر؛ سرًّا وعلانية، كاسم لطرازٍ جديدٍ من النقد، يُخشى منه ومن قُدرته على التشكيك بقيمة كلِّ القِيم"(٧٦).

ومما وجه للتفكيك من نقد أنه قائم على لا نهائية الدلالة، فيفصلون الدال عن المدلول، يقول عبدالعزيز حمودة:" المعنى المفتوح، والدلالة اللانهائية، وإساءة القراءة، هي جوهر التفكيك كما قدمه "دريدا" وأقطاب المدرسة الأمريكية

(٧٤) انظر: جاك دريدا: ماذا الآن؟ ماذا عن غد؟ (ص٢٠٠).
(٧٥) انظر: بحث بعنوان: التفكيك منهج خطير في التفسير (ص٣٠-٣٢).
(٧٦) نقلًا عن: العمى والبصيرة مقالات في بلاغة النقد المعاصر (ص٤).

للتفكيك"[٧٧]. فالقول بلا نهائية المعنى ارتبط بالقول بأنه لا توجد قراءة صحيحة وقراءة خاطئة، ولكن توجد قراءات لا نهائية حتى القول بأن كل قراءة إساءة قراءة هي قراءة صحيحة أو مناسبة،" والربط بين المقولتين السابقتين يُؤدي في نهاية الأمر- كما يرى بعض معارضي استراتيجية التفكيك- إلى اللامعنى"[٧٨].

ومن النقد الذي وجه للتفكيك، أن الشك واستحالة المعرفة اليقينية من مرتكزاته وأي مصطلح يدعم هاتين الركيزتين فإنه يدعمه وينشره، والعكس،" بينما تنشأ التفكيكية داخل الشك الجديد والذي خيم على العالم: الشك في المعرفة اليقينية، الشك في قدرات العلم، الشك في قدرات العقل، والشك النهائي في وجود مركز، أي مركز... تؤكد استراتيجية التفكيك استحالة الحضور، فحضور ذلك المركز المحوري الخارجي داخل النص، أو اللغة يرتبط دائما بالغياب. وتصبح المراوغة indeterminacy والغموض ambiguity والانتشار dissemination والبينصية ولا نهائية الدلالة هي أبرز سمات النص. المهم أن الحضور لم يعد حاضرًا في النص أو النسق اللغوي إلا مقرونًا بالغياب، وهو ما يبرزه دريدا"[٧٩].

كما أن التفكيك يرفض أي سلطة مرجعية،" وفي عصر خيّم عليه الشك تفقد المراكز المرجعية كالعقل، والإنسان، والوجود، والله، قيمتها. والنتيجة؟ دلالة لا نهائية، وعنى مراوغ، وحضور في غياب، وغياب في حضور، وتكسر الوحدة، والتشرذم والانتشار"[٨٠].

ومما وجه للتفكيك من نقد أنه مشروع عبثي، يقول المسيري:" لِمَ (لا يستحي) دريدا بعد أن كتب عشرات الكتب يهاجم فيها نقاط الثبات (الحضور- التمركز حول اللوجوس والمنطوق- المدلول المتجاوز)؟! لِمَ لا يعتذر عما بدر منه من تفكيك وهجوم على الميتافيزيقا وعلى أي ثبات وأي إيمان؟!

وقد وجه إليه أحد الحاضرين سؤالًا في غاية الأهمية والعمق، إذ ذكَّره بقوله" إن التفكيك ليس منهجًا، بل استراتيجية"، فأغرقنا جاك دريدا كعادته في فيض من الكلمات، فقد قال:" إن استراتيجيته دون غاية، وتفكيره لا هدف له، وذلك كما أكد كاهن التفكيكية الأعظم (أشبه بالجنون) ثم أضاف قائلًا:(وأنا أرضى بالجنون). هل يقوم دريدا بتفكيك خطابه بنفسه بادعائه أن ما يقول هو مجرد جنون وهذيان،

---

(٧٧) المرايا المحدبة (ص١٥٣).
(٧٨) المرايا المحدبة (ص٣٤٥).
(٧٩) المرجع نفسه (ص٣٣١).
(٨٠) المرجع نفسه (ص٣٥٠).

فيستعصي تفكيكه على الآخرين"(٨١).

فنحن قد رأينا خطورة هذا الفكر على النصوص عمومًا والدينية خصوصًا، فهي تشوه المقصود منها، إذ لا يمكن بحال من الأحوال" دراسة القرآن انطلاقًا من المنهجية التفكيكية تشريحًا واختلافًا؛ لأن القرآن يحوي حقائق وبنيات عقائدية وتشريعية ثابتة، من الصعب الطعن فيها لقدسيتها الربانية، كما أن ما ورد في القرآن الكريم يقيني وثابت ومحكم، لا يمكن التشكيك فيه بأي حال من الأحوال. فيستحيل تطبيق التفكيك بمفهوم جاك ديريدا على القرآن الكريم؛ لأن منهجية ديريدا التفكيكية قائمة على الهدم والتقويض والتشكيك... فالتفكيكية تعمد إلى الهدم والثورة والرفض، ونقد المقولات المركزية في الفكر الغربي بصفة خاصة، والفكر العالمي بصفة عامة كاللغة، والعقل، والتاريخ، والعرق، والصوت... وغيرها من المقولات التي تمثلها الفكر الإنساني. أما القرآن فيتسم بالانسجام والاتساق والإعجاز، والدعوة إلى استخدام العقل لمعرفة الله، وتعمير الدنيا. كما أن القرآن ليس فكرًا بشريًا لتعريته، وليس إيديولوجيا بشرية أو سياسية للإطاحة بها، ونقدها تفكيكًا وتشريحًا... أضف إلى ذلك أن فلسفة ديريدا هي فلسفة التقويض، والفوضى، والهدم، وإشاعة السلبية، وإثارة نزعات الصراع والاختلاف. ومن ثمَّ فالقرآن الكريم بعيدٌ كل البعد عن هذا، فهو كتاب ديني مقدس، يهدف إلى ترقية الإنسان ماديًا وروحيًا، والسمو به بشريًا وأخلاقيًا ونفسيًا، وهدايته إلى السبيل الصحيح للفوز بالدنيا والآخرة؛ أي: إنه كتاب عقدي إيجابي في خدمة الإنسان، والحفاظ على الفرد والجماعة، ضمن نظام مجتمعي ثابت قوامه الاحتكام إلى الشريعة الربانية... إن التفكيكية فلسفة سلبية عدمية، تشكك في كل شيء، وليس ذلك من أجل الوصول إلى اليقين... بل هي تشكك من أجل الشك والتقويض والهدم، وتسعى جاهدة إلى نسف التقاليد والعادات، وإزاحة الثوابت والمقولات المركزية، وتسفيه القيم الموروثة، والتشكيك حتى في الكتب الدينية المقدسة، وإخضاعها لمشرح التأويل الاختلافي، والتشتيت التقويضي. علاوة على ذلك، فهي لا تعترف بالخارج النصي، كالمؤلف، والسياق، واللغة، والقارئ، والحقيقة، والعقل، والبنية، والتاريخ... إنها ممارسة للاختلاف من أجل الاختلاف، وتقويض متعمد من أجل الهدم، لا من أجل البناء والتركيب. ويعني هذا كله أن التفكيكية هي فلسفة الرفض، والعدمية، والتقويض، والهدم، والتضاد، والجدال السلبي، حيث يتلاشى الكل، وينهار الواقع، ويتفكك النص والخطاب على حد سواء، فيخوض النص حربًا ضد نفسه تآكلًا وتضادًا واختلافًا"(٨٢).

---

(٨١) الحداثة وما بعد الحداثة (ص١٢٢،١٢٣).
(٨٢) نظريات النقد الأدبي ومناهجه في فترة ما بعد الحداثة (ص٦٤-٦٧).

الخاتمة: أهم النتائج:

الحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا أن منّ عليّ بإتمام هذا البحث، واسأله بمنه وكرمه أن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وفي الختام أذكر أهم ما توصلت له من نتائج، وهي كما يلي:

١. الغموض الذي يكتنف التفكيكية، مما أدى إلى صعوبة تعريفها تعريفًا جامعًا مانعًا.

٢. صعوبة وضع تعريف محدد جامع مانع للفلسفة التفكيكية راجع إلى أن من خصائص هذه الفلسفة التمرد ورفض التعريف والتحديد.

٣. أي منهج قبل أن يكون أدوات إجرائية فهو رؤية وتصور عن العالم والوجود والتاريخ والإنسان.

٤. التفكيك أحد الاتجاهات الفكرية لما بعد البنيوية.

٥. التفكيك يقوم على أساس الهدم والتقويض.

٦. التفكيك قام على رفض الميتافيزيقيا الغربية.

٧. خطورة استخدام المنهج التفكيكي على النصوص الأدبية أو الفلسفية بل على النصوص الشرعية.

٨. ظهرت الفلسفة التفكيكية للخروج من مأزق نصية الكلام المقدس إلى شرح يتوافق للعقل النقدي ثم تطورت إلى أبعد من ذلك.

٩. الفرق بين التأويل والتفكيك هو أن كليهما يتجاوزان المنطوق؛ لكن التأويل يسعى للوقوف على مقاصد المؤلف، والتفكيك يعالج النص ويسعى إلى استكشاف إمكاناته العقلية النقدية بعيدًا عن المؤلف وما يريده.

١٠. الفلسفة التفكيكية أسيرة الهاءات الثلاثة، للشخصيات الفلسفية (هوسرل – هيدغر- هيغل).

١١. ظهرت الفلسفة التفكيكية كمشروع لقراءة النص الأدبي، وتشكلت حتى أصبحت تتخذ مظاهر عديدة؛ فمرة يبدو موقفًا فلسفيًا وأخرى استراتيجية سياسية أو فكرية وأخرى طريقة في القراءة.

١٢. الصحيح أن يُقال عن الفلسفة التفكيكية إنها أداة للنقض وليس للنقد؛ لأنها بعد النقض لا تقدم نظرية بديلة.

١٣. يكمن خطر الفلسفة التفكيكية في التشكيك في الثوابت واليقينيات في أي خطاب لأن الجميع لا مدلول له إلا ما يراه الناقد، فاصبح الخطاب سبيلًا إلى نقد نفسه بطريقة

أخرى حيث انه يقوم على البحث عن مدخل في الخطاب يكون عاملًا وسبيلًا إلى هدمه.

١٤. لا مركزية في فهم الخطاب، ولا دلالته ثابتة في فهم مدلولاته.

١٥. رفض الفلسفة التفكيكية أي سلطة مرجعية عقلية يفتح بابًا للسفسطة.

المصادر والمراجع:

١. أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي، جاك دريدا، ترجمة وتقديم: د. عمر مهيبل، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، الناشر: الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت.

٢. استراتيجيات القراءة التأصيل والاجراء النقدي، بسام قطّوس، طبعة ١٩٩٨م.

٣. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إداورد سعيد، ترجمة د: محمد عناني، الطبعة الأولى، الناشر: رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة: ٢٠٠٦م.

٤. البنيوية وما بعدها بين التأصيل الغربي والتحصيل العربي، رسالة ماجستير للطالبة: وردة عبدالعظيم عطا الله قنديل، قدمت بكلية الآداب قسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بغزة، عام ٢٠١٠م.

٥. البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، تحرير: جون ستروك، ترجمة: محمد عصفور، الناشر: سلسلة عالم المعرفة، رقم الكتاب (٢٠٦) رمضان ١٤١٦هـ.

٦. التفكيك الأصول والمقولات- عيون المقالات، عبدالله إبراهيم، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، المغرب.

٧. التفكيك منهج خطير في التفسير، د. وليد قصاب، بحث نُشر بمجلة نهج الإسلام، سوريا، العدد ١٠٥، ذو الحجة ١٤٢٧ هـ.

٨. التفكيكة دراسة نقدية، بيير ف. زيما، تعريب: أسامة الحاج، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

٩. التفكيكية عند جاك دريدا، بحث بمجلة الكلية الإسلامية الجامعة، النجف- العراق، للباحث: مروان أمين، العدد (٤١) مجلد (٢).

١٠. التفكيكية في الفكر العربي القديم جهود عبدالقاهر الجرجاني أنموذجًا، عبدالله خضر حمد، الناشر: دار القلم، بيروت- لبنان.

١١. التفكيكية في الفكر العربي المعاصر (علي حرب أنموذجًا)، رسالة ماجستير للطالبة وفاء بن عمارة، بجامعة محمد بوضياف بالجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، لسنة: ٢٠١٥م.

١٢. التفكيكية في قفص الاتهام، جميل حمداوي، الطبعة الأولى ٢٠١٥م.

١٣. التفكيكية وقراءة الأدب العربي القديم، سامي محمد عبابنه، بحث منشور في مجلة " دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية" بالأردن، المجلد (٤٢) ملحق (١) (٢٠١٥م).

١٤. تلقي التفكيكية في النقد العربي الحداثي– علي حرب أنموذجًا-، رسالة ماجستير للطالب: أحمد العزري، بجامعة مولود معمري، بالجزائر، كلية الآداب واللغات.

١٥. جاك دريدا: ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب، لمجموعة مؤلفين، إشراف: محمد شوقي الزين، الطبعة الأولى ٢٠١١م، الناشر: دار الفارابي- بيروت- لبنان.

١٦. الجذور المعرفية والفلسفية للمناهج النقدية المعاصرة: المنهج التفكيكي نموذجًا، مقال نشر في مجلة "جيل الدراسات الأدبية والفكرية"، عدد ٥٣.

١٧. الحداثة وما بعد الحداثة، عبدالوهاب المسيري وفتحي التريكي، الطبعة ٢٠٠٣م، الناشر: دار الفكر- دمشق.

١٨. حوار جاك دريدا، كريستيان ديكان، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان ١٨ و ١٩ لعام ١٩٨٢م.

١٩. الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريح قراءة نقدية لنموذج معاصر، د. عبدالله الغذامي، الطبعة الرابعة ١٩٩٨م، الناشر: الهيئة المصرية العام للكتاب- القاهرة.

٢٠. دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب.

٢١. دليل النظرية النقدية مناهج وتيارات، بسام قطّوس، بدون ذكر الطعبة وتاريخها.

٢٢. العمى والبصيرة مقالات في بلاغة النقد المعاص، بول دي مان، تحرير: فلاد غوزيتش، ترجمة: سعيد الغانمي، الناشر: المشروع القومي للترجمة- القاهرة.

٢٣. عن الأدب، هيلس ميلر، ترجمة: سمير طلبة، الطبعة الأولى، الناشر: المركز القومي للترجمة، القاهرة: ٢٠١٥م.

٢٤. الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، يوغرن هابرماس، ترجمة وتقديم: نظير جاهل، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب.

٢٥. في جينالوجيا الأخلاق، فريدريتش نيتشه، ترجمه وقدم له: فتحي المسكيني، مراجعة: محمد محجوب، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، الناشر: دار سناترا- المركز الوطني للترجمة، تونس.
٢٦. القراءة التفكيكية، فاطمة زهر سماعيل، مقال منشور في المجلة الثقافية الجزائرية، رابط المقال https://thakafamag.com/?p=٥٣٥٦ تاريخ الاقتباس ١٤٤١/٩/١٦هـ.
٢٧. قيم الحداثة في فلسفة جاك دريدا، أوعشرين منير، رسالة ماجستير من جامعة وهران- كلية العلوم الاجتماعية ٢٠١٥/٢٠١٦م.
٢٨. الكتابة في النقد التفكيكي عند جاك دريدا من خلال مؤلفه "الكتابة والاختلاف"، ديوان السعيد، رسالة ماجستير، من جامعة قاصد مرباح- ورقلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، نوقشت يوم الأحد ١٣ ديسمبر ٢٠١٥م.
٢٩. الكتابة والاختلاف ، جاك دريدا، ترجمة: كاظم جهاد، تقديم: محمد علال سيناصر، الناشر: دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب.
٣٠. لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، الناشر: دار صادر، بيروت.
٣١. مجلة الحوار المتمدن، العدد (٣٧٩٤)، بتاريخ ٢٠١٢/٧/٢٠م.
٣٢. مجلة نهج الإسلام، سوريا، العدد (١٠٥) ذو الحجة ١٤٢٧ هـ.
٣٣. مداخل إلى التفكيك، ميشيل رايان وجوناثان كلر وريشار دروتي وكريستوفر نورس، ترجمة: حسام نايل، الطبعة الأولى، الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة ٢٠٠٥م.
٣٤. المرايا المحدبة لعبدالعزيز حمودة- دراسة في نقد النقد، إعداد: نبيلة معمري وسميرة بارودي، مذكرة مكملة لشهادة الماستر، العام الجامعي ١٤٣٨هـ.
٣٥. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، د. عبدالعزيز حمودة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطبوعات: عالم الفوائد، رقم الكتاب (٢٣٢) إبريل ١٩٩٨م.
٣٦. المصطلحات الأدبية الحديثة- دراسة ومعجم انجليزي- عربي، محمد عناني، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣م، الناشر: الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان- القاهرة.
٣٧. معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديث، عبدالله إبراهيم وآخرون، الطبعة الثانية ١٩٩٦م، الناشر: المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب.
٣٨. الممنوع والممتنع نقدُ الذات المفكِّرة، علي حرب، الطبعة الأولى ١٩٩٥م،

الناشر: المركز الثقافي العربي- المغرب- الدار البيضاء.
٣٩. مناهج النقد الأدبي الحديث- رؤية سلامية، وليد قصاب، الطبعة الثانية ١٤٣٠، الناشر: دار الفكر- دمشق- البرامكة.
٤٠. مناهج النقد الأدبي الحديث، عبدالله خضر حمد، الطبعة الأولى ٢٠١٧، الناشر: دار الفجر للنشر والتوزيع- القاهرة.
٤١. مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، عبدالله خضر حمد، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر- لبنان.
٤٢. موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية، أندرو إدجار وبيتر سيدجويك، مراجعة وتقديم وتعليق: محمد الجوهري، ترجمة: هناء الجوهري، الطبعة الثانية ٢٠١٤م، المركز القومي للترجمة- القاهرة.
٤٣. نظريات النقد الأدبي ومناهجه في فترة ما بعد الحداثة، د جميل حمداوي، كتاب منشور على موقع الألوكة.
٤٤. النقد التفكيكي عند عبدالملك مرتاض، رسالة ماجستير بجامعة العربي بن مهيدي بالجزائر، كلية الآداب واللغات، إعداد الباحثة: عليمة حواس، لسنة: ٢٠١٥.
٤٥. وضعنا النقدي.. وضعنا الثقافي، عزيز الشرقاوي، بحث نُشر في مجلة "الثقافة الجديدة"، العدد (١١/١٠)، السنة الثالثة ١٩٧٨م.